E L I A S   F A R K O U H



إلياس فركوح

أرض اليمبوس

القائمة القصيرة لجائزة بوكر العربية عام 2008

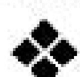




اليَمْبُوس (المطهر)

المنطقة الوسط ـ بحسب المفهوم الكاثوليكي ـ أو الثالثة ما بين الجنّة والجحيم، تودَع فيها أرواح الأطفال الأبرياء الذين ماتوا قبل نيلهم المعموديّة ، لتزول عنهم الخطيئة الأصليّة (خطيئة عصيان آدم وحواء لأمر الرب بعدم الأكل من شجرة التفّاح) ، ضمن الإيمان المسيحي. وكذلك ، هي المنطقة حيث تعيش أرواح البررة من غير المؤمنين والخيّرين الذين نشأوا في أزمنة الكُفْر إنّما لا ذنب لهم لعدم إدراكهم رسالة المسيح.

أفردَ *دانتي* لليمبوس جزءاً كبيراً في عمله الأشهر «الكوميديا الإلهية» ، كما عمل بورخيس على رسم خريطة لها بوحيٍ من توصيف دانتي، ضمن محاضرات ألقاها.



كـأنما يوشك على التصدُّع . الآن . لحظة اعتكرت روحه ؛ إذ يستيقظ حنينٌ يَمضّهُ .

وأراه يواصل تحديقه في أعلى التل الماثل على يساره هناك . خارج زجاج النافذة المغلق . داخل الغَسَق الذي يتشكل كبرتقالة معلّقة تلتهب في فراغ يشحب . كانت السفينة تلفّها أمواجُ دخانٍ أبيض . تتخايل داخل غيوم هابطة إليها لتضمها كأنّها أذرع ذات وزن. ثم رآها انتقلَت إلى هناك . من ظلّها المؤطَّر على الحائط مقابل سرير رقدته ، إلى الخارج حيث اللهب السماوي آخذٌ بالانطفاء . عندها فكرَ : ها هي ، دون إرادة رُبّانها وبحّارتها الموتى تغطس بكامل بهائها العتيق . تغرق في بحر خُضرة متوحشة لم تنل منها شموس الزمن !

بدت له الأشياء واضحةً في لوحة تكذّبُ حقيقتها ، وتؤكدها ، في الوقت نفسه . باتَ يعاينُ اللوحةَ : أسيرة في قبضة الغيوم. ويعاينُ ، في اللحظة نفسها ، تعيّنها المخايل في الخارج : حُطاماً من خشب يغرق في عشبٍ صاعد. ثم طفقَ يمعِن في نهر أفكاره كأنه ينغمر داخل صورته في المرآة !

كأني ، بين تأكيد الحالة وتكذيبها ، خِلته يستنكر ويؤكد في آن : «إنها السفينة !» ، فاعتراني العجَبُ. أو لعلّه الانبهار بالأحرى. وفكرتُ بدوري : أي مشهد يقارب الحلم هذا ! وكنت أنظر من النافذة أنا أيضاً، غافلاً عن القلم بيدي التي جمدت فوق الدفتر على سطح المكتب .

1

وإذ كنتُ أخطو باتجاه العربة ، لفحتني حرارة في الهواء لا تناسب صباحاً كانونياً بارداً ؛ فقلتُ : أوشكَ جحيم الخليج على الوصول!

وفيما أنتظر ارتفاع حرارة المحرّك ، أنصَتُّ إلى مذيع مونتي كارلو يسرد وقائع آخر الأخبار : اجتماع طارق عزيز بجيمس بيكر ، وتلك المصافحة اللدودة التي انتشرت عبر العالم. فتذكرتُ ليلة أمس: الرجل غارق في معطف ثقيل. إطار نظارته أسود وزجاجها سميك. وثمة حقائب كبيرة سامسونايت بأيدي مرافقيه. يده ترتفع بسيجار كوبي عند تلويحه للصحفيين المحتشدين بكاميراتهم ، لدى عبوره السريع لممر فندق في جنيف .

شاهدتُ هذا وانتقلتُ إلى المكتبة لأستكمل تدوين يوميات الحرب التي لم تقع بعد. جلستُ أنظر الأوراق الناقصة، مزمعاً البدء من حيث انتهيت في الصباح. وقبل أن أكتب الجملة الأولى، هتفت زوجتي من مكانها أمام التلفزيون. تقصَّدَت رفع صوتها ليعلو على أصوات وزراء خارجية ، ربما ، أو ممثلي دولهم في الأمم المتحدة ، تُعلن وتحددُ مواقفها برتابتها الدبلوماسيّة من التلفزيون :

«قهوة ، أم نسكافيه ؟».

«نسكافيه ، شكراً».

ثم قطعَ عليَّ نجيب الغالبي ما انسقتُ إليه. كُنا وصلنا نقطة الافتراق يساراً قبل «عطا علي»، مخلّفين وراءنا مجمّع النقابات لندخلَ الشارع المؤدي إلى «دارة القهوة»؛ إذ قال:

«ماذا تكتب ؟».

فوجئتُ بالسؤال. نظرتُ إليه متحيراً، وعدتُ أحاول القيادة باحتراس. ثمة تلاصق للعربات في ضيق الشارع الفرعي، وعليَّ أن أحاذر. فوجئتُ حقاً. ماذا أكتب ؟ أعرفُ أنني أكتبُ شيئاً عن حرب آتية، غير انها لم تقع بعد. ما هذا الشيء ؟ يصعب عليَّ في حالات عديدة تعريف ما أكتب. أعني: ليس يسيراً أن أضعه داخل كتابة مستقرة متعارَف عليها. لحظتها وجدتني أنتهزُ فرصة خلو مكان يتّسعَ لعربتي، فأسرعتُ لأحتلّه قبل سواي. ولحظتها، أيضاً، وجدتني أمسكُ بفكرة أنني لستُ مستقراً على حال كتابيّة لأنني (كما صارحتني منتهى ـ أو ماسة، لاحقاً) لستُ مستقراً كَشخص! فأنتَ حين لا تكون مستقراً في داخلكَ، لن تخرج منكَ سوى شذرات لا تنتسبُ لأي كتابة بقدر ما هي كَشْفٌ لكَ. قد يكون كشفاً أدبياً، ولكن ... ـ لم يمهلني الغالبي:

«ما بكَ ؟»، سألني مستغرباً صمتي.

قلتُ، كأنما خرجَت ردةُ فعلي عن إرادتي: «هل تكتب ؟».

«أنا !»، بدا تردُدُهُ في تلكئه. عَلَّ سؤالي فاجاه كما فاجأني في الوقت نفسه. غير أنه تمالكَ فاستدركَ: «أحياناً».

«ماذا تكتب ؟» ـ أعدتُ سؤالَه إليه.

«عن العناية بالصحة والأمراض. كتبتُ مقالاً عن السكري وسلّمته للمحرر قبل أن تجيء !».

«أأنتَ طبيب ؟».

ضحكَ: «قُلْ إنني بيزنس مان يهوى المعرفة!».

«بنايوت حوْش» في محلّه على زاوية الشارع المواجه لـ «مقهى السنترال».

قبل يوم ، رغبتَ أن تأكل منها .

«لا تفكرْ بهذا . إيّاك» قالت الأم : «ليست لنا !».

ولأنكَ تحبُ الجبنة الصفراء ، اعترضتَ مستنجداً بعيون أختيك :

«لكنها لذيذة».

قلتَ ، مستحلباً تحت لسانكَ مذاقاً لقطعة ما إن لكتها حتى استحالت إلى فُتات يذوب ! شَهيّ ، لكنه سريع التلاشي . كأنما هو كذبة ! هذا ما تذكرهُ الآن . وهذا ما لم تذكره لأمكَ وقتذاك ، لأنك كنتَ غائباً عنه . ولأنك ما كنتَ قادراً على جَعْل مسافة كافية للتأمل. ولأنكَ كنتَ غارقاً بتفاصيل الحُمّى غير المفهومة. ولأنك كنتَ صُدمتَ بالصوت الذي طلعَ من الرجل الأشيب قبل أوانه، فتَلَفَّتَّ لترى ، لَلمرة الأولى ،كيف هو التصدع الآدمي ! كان يحبسُ صخرةً في صدره لا يريد لها أن تخرج ، فمزقته وأرغمت جسده على الارتعاش، فلاذَ من عيونكم بأن غطّى وجهه بكَفَّيه الكبيرتين .

* * *

هي معاينةُ العَين المفتوحة على ما تُسميه ، الآن ، «تلك كانت البداية» !

الحربُ توقفَت .

ومثل قيامتها الخاطفة ، كانت نهايتها . هكذا مذاق الجبنة اللذيذ . ذاك المذاق القديم الذي حاولَت أختك الكبرى ، لتطييب خاطرك ، إقناع الأُم بشراء علبة منه :

«ورخيصة الثمن.»

«ولو . جبنة النازحين ينبغي ألاّ تُباع !».

قالت على نحو قاطع . ونفَرَت إلى حيث لا تكون قريبة لرؤية الحيرة تولد في عينيك ، والأسئلة تُزرَعُ في قلبك .

فريقكم لفريق مدرسة أخرى . وفوقكم ، في الأعلى ، على جبين السور وممره الحَجَري ، يصطف رهطٌ من الجنود يصفقون بابتهاج صاخب ، ويهتفون بتشجيع حميم لكل كرة حاذقة تدخل شباك السلّة . لم ينحازوا لأحد ، رغم تعاطفهم معكم بحكم (الجيرة) ؛ بقدر ما كانوا، ربما ، يستثيرون حماسةً ليوقظوها من سُبات الهدوء القاتل لأرواحهم ولخط الجبهة البارد. كانوا ، في الحقيقة ، يرقبون ويحرسون أرضاً حَراماً يُشرفون عليها من أعلى السور ، بعيونهم المجردة ومناظيرهم المقرّبة ، ينبغي أن تبقى حَراماً .

كان ذلك قبل أن تدخل المدينةُ في حربٍ ابتلعتها ، ولم تَعُدْ منها ، بَعد .

وتلك ما ظَنَنتَها حربَكَ : لكنها لم تكن فعلاً .

فصارت ما عددتها جولتك الأولى : كانت كذلك حقاً . وكانت خاسرة .

فهّلا تساءلتَ عمّا جمعَ ، في تجاربك كلها ، بين الحرب والمرأة ؟

* * *

غسلَتكَ وحممتكَ كأنك وُلدتَ من رحمها للتو . من رحمها هي. دَعكَت جسدكَ بالليفة والصابون (كأنما هي أُمكَ أيام زمان) وكنتما في حَمّام فقير . أنتَ تجلس على كرسي واطئ ، وهي تقف خلفك تدلق ماءً فاتراً ، بينما الحرب تبتعد وتنأى لتنبعثَ في أغانٍ تتجدد بين حين وحين .

ثم طالَ الحينُ وامتدَّ فصارَ سنينَ كبرتَ عبر مسالكها ونَضَجَتْ في أيامها جمراتُ حروب أخرى : تلك التي إنْ غَفَتْ قليلاً ، سرعان ما تنهض لتؤكد لكَ أنكَ الابن الموشوم بها ، ومنذ الولادة .

* * *

ولدتُ في سنة النكبة !

أمـامي في الوسط ، بحـديقـة صغـيـرة وسيـاج واطئ ، بغيـمات قليلة كـالقطن تتناثر حـول الشـمس الشـمّـوسـة ، بمدخنة تعلو السطح تخرج منهـا ثلاث دوائر سود ينبغي أن تكون دخـاناً للموقـد الإنكليـزي في صـالة المعيـشـة حـيث اعـتـاد الأب قـراءة الجـريدة بعـد العشـاء ، حـامـلاً غليـونه كقبطان متقاعد، والأم عاكفة على حياكة الصوف كأي أم طالعـة من حكايا الجنيّـات ، والصـغـيـران ليـزا ومـارك يتقـاذفان الكرة فـوق البسـاط الملوّن ، والكلب بوبي يرقـد عند مصطبـة الموقد الرخـامية مـستدفئاً بالنار الأمـينة، ونائماً بعينين عجيبتين : عَينٌ مُغمضَة ، وعَينٌ مُشرَعَة !

كـأني أرى الأشـيـاء والعـالم بعينيّ هذا البـوبي الوديع : عين تفـحص الداخل وتغـور ، وعين ترصد الخارِج وتدقق. الأولى تغـرقُ في الأحلام أو ما يشبهها ، والثـانية تحاكم العالمَ وتنصب له المعايير . لكنّ مشكلتي - حتى وإنْ كـان ذلك صـحـيـحـاً - أنني مُصـابٌ بازدواجية الرؤية . «دبل ڤيجن يعني» ، بحسب ما فسَّرَت «ماسة» لي الأمر .

«أنتَ تخلط ولا تميّز . لديكَ انحراف» .

فحاولتُ أن أفهم ، ولكن على نحو مجازيّ :

«على الأقلّ لستُ منحرفاً » .

سارَعَت ، وكأنها انتهزت فرصةً لن تفوّتها هذه المرة :

«لستَ مستقيماً ، تماماً ، أيضاً . »

«أعرف. كُلّنا كذلك . لكنني معكِ بريء كالحَمَل» .

لكزتني بمرفقهـا ، فـأصدرت أجـراسُ إسـوارتهـا الصـغـيـرة صـوتَهـا النشاز، ونفذت إليّ رائحة عطرها القوي ، ورأيتها تُسقطُ سيـجارتها في تفْل فنجان القهوة ، قبل أن تقول :

«على هامان يا فرعون !».

كانت المرة الأولى التي يدعوني فيها لزيارته . مضى على تعارفنا ما يقرب من سنة كاملة . هبّت «عاصفة الصحراء» ساحبةً الجيش العراقي إلى داخل أراضيه مدحوراً خاسراً الكثير من جنوده وآلياته ، ومُعيدةً الكويت إلى منظومتها الأولى . غير أن الغالبي لم يَعُد . افتتحَ مكتباً للاستيراد «لتسيير الحال وقضاء الوقت» ـ بحسب تعبيره ـ ، مكتفياً بما جناه . ومن جهتي ، لم أُبد اعتذاراً ، ولو تأدباً ، لدعوته غير المحددة بوقت . كنت أتشوق لمعرفة المزيد عن شخصه ، ورددتُ لنفسي أنْ لا مكان يحتفظ بمكنون الكائن مثل بيته .

لا أُخفي أنَّ إقراراً كهذا إنما استقيته منه ، ربما بسبب طول ترديده عليَّ ، فتسربَ إليّ وباتَ ، دون إرادة مني ، كأنما هو رأيي الشخصي.

أوليست الحياة هكذا ؟

أولسنا ، نحن الأفراد أبطال مرايانا ، مجموعة تشابهات ومفارقات وتناسخات ومقاربات نستقي من بعضنا بعضاً لنفترق ، بعد خبيز الذاكرة، عن بعضنا بعضاً ؟

* * *

ذهَبتَ وقرعتَ باب بيته ، ففتح لك .

حين تتذكر تلك السهرة سرعان ما يحضر الباب في خيالك أولاً . أنتَ أمامه لتقرعه . عيناك على خشبه الماهاغوني المدهون جيداً بتضليعاته الغائرة ، بينما ثُبتت في وسطه قطعة نحاس بهتت لمعتها ، وبالحرف الديواني خُطَّ الاسم بالأسود : عزيز رزق الله !

حرتَ أول الأمر ، محمّلاً نفسك مسؤولية الخطأ في الاستدلال على العنوانَ . غير أنك نفيتَ ذلك على الفور ؛ فلقد أوصلته إلى هذه البناية مرتين . كانت المرة الأولى بعد أن استقرت أفواج المطرودين من الكويت، وتيقنهم من تبدُّد سراب أمل عودتهم إليها . والمرة الثانية قبل أسبوعين أو أقلّ قليلاً . انتَ لم تصعد ، وهو لم يُلحّ . إنها البناية نفسها . لا مجال للخطأ . في الشارع نفسه . بين «حديقة الطيور»

بمليون آهة . مشحونة بألف حسرة . مُرسلة صفعةً واحدة كافية لأن تعيد إلى رأسك دُوار ما كانت تفعله صفعاتَ المدرّسين الرهبان الأخوة حين كنتَ ، قبل ثلاث سنوات فقط ، تلميذاً تدرس هناك . في القدس . في المدينة التي صار الوصول إليها ، بالهاتف ، رجاءً بلا تحقق . لم يكن ذلك كذلك قبل أسبوع . قبل سبعة أيام .

قبل هذا بسبعة أيام ، وربما سبعة أخرى أو أكثر، لم يكن ما وقعَ قد وقع .

كنتم تجلسون في الغرفة ذات الواجهة المزججة العريضة ، كعادتكم، تلتمسون بهجة شمس أول الصباح . الواجهة تطلّ على الزقاق مباشرة . الزقاق يمتلئ بزبائن مطعم هاشم المتحلقين ، مجموعات متفرقة فوق كراسيهم الواطئة ، حول صحون الفول والحمص ومشتقاتهما . ومن إحدى النوافذ المشرعة في الواجهة ، كانت أصوات الزقاق الأليفة وكلٌّ في جلسته يشاهد ويسمع : القوقآت المتصاعدة من أقفاص الدجاج لّما أخرجها صاحبها من الدكان الصغير أسفل البيت تماماً. الاصطفاق المعدني لباب موسى الحلاّق يُرفَع بعنف . طرطشة المياه التي يكنسها غارو من أمام مقهاه ، بأقلّ أذىً يلحقه بمغمّسي فطورهم مقابله، مفسحاً لصَبيّه مجال نقل الصواني المحملَة بأكواب الشاي الأستيكانات الرقيقة والدوبُل المُضَلَّعَة. يوسف، بائع الجرائد ، يحمل الرُّزم المخصصة له ليرتبها بحسب أسمائها على عتبة مكتبة عزيزية المجاورة : الجهاد ، الكفاح ، فلسطين ـ أما المجلات الأسبوعية مثل حواء ، والصيّاد ، والكواكب ، والموعد ، وآخر ساعة ، وروز اليوسف، والمصوّر ، وصباح الخير ؛ فلقد استعادها من (بيت الدَّرج) حيث كان يؤمنها هناك، عندكم ، في آخر النهار : كنتَ أنتَ مَن ضغطَ مكبس الرتاج الكهربائي قبل ساعة لتفتح له . لم تخبره ، يومها ، أنك احتفظتَ بنسخة من «صباح الخير» لإعجابك ببورتريه جمال قطب الملوّن لوجه جمال عبد الناصر ، تضيفه للآخر الذي رسمه لأم كلثوم . كنتَ مدمناً على تصفُّح المجلة لأنك ، مثلما كنت تتوهم ، ستصبح فناناً، والمجلة تعتمد

له ! كأنما لستُ أنا الأكبر من أخي والأقوى ، وأبي ليس عجوزاً جاوزَ الستين ! الاثنان يمضيان أمامي بلا تردد ، بلا تلكؤ ، وأنا يتفصّدُ العَرَقُ مني ويباغتني إحساسٌ كالمغص ! أهي الرائحة التي تملأ الأزقة في العاشرة صباحاً ! رائحة غريبة ؛ ليست منفّرة أو كريهة ، مثلاً ، لكنها زائحة أجيز لنفسي ، الآن ، أن أقتربَ منها ، من حقيقتها ، أو من حقيقة تصوري لها ، ربما ، فأقول : رائحةُ القدَم ! نكهةُ العَتاقَة ! أو أن ذلك كلّه ليس سوى محاولة مني ، متأخرةً ، لرسم مشهد أدبيٍّ يُلَمِّحُ إلى ما هو أبعد من تفصيلٍ صغير حضرني اللحظةَ كالرؤيا ، يلحُّ لأكتبه قبل أن أنساه :

كان باباً خشبيّاً عتيقاً ، على يمين الزقاق الصاعد ، منفرجاً إلى نصفه، بمسامير كبيرة في عوارضه ، سوداء بها صَدَأ ، وفجأةً يطلعُ من عتمة الداخل ولدٌ في مثل عُمري ، أو أصغر في عُمر أخي ، ليقفَ وينظر إليَّ وعلى وجهه بسمةٌ هازئة ! شقَّ البابَ ووقف يواجهني ، كأنما كان ينتظر قدومي ! بوغتُّ وشعرتُ بإهانة ، أو هي شتيمةٌ صامتةٌ أطلقها في وجهي ، دون سببَ ! فارَ دمي غيظاً ، لكنني سرعان ما تحوّلتُ إلى مشدوه لمّا تبينتُ أنه مجرد راهب يتسربل بثوب الفرنسيسكان البُني الغامقَ ، وعلى وسطه الحبل الأبيض معقودٌ بإهمالٍ تحت بطنه ! راهبٌ ولَد ! ولَدٌ راهب ، بشَعرٍ أحمر حليق يكادُ يشفُّ عن جلدة رأسه ، ويتسيَّل تحت فمه وفوقَ ذقنه اللعاب الثقيل الذي يصاحبُ وجوه المعتوهين ، أو البُلهاء ، دون إرادةٍ منهم ! أولئكَ الذين صادفتُهم يمرّون أمام تخشيبة خضر شاويش ، على السيل ، يبرطمون ويحدّثون أنفسهم! توقفتُ أتحداه ، مسقطاً حقيبتي الجديدة المليئة بثياب تكفيني شهراً ، لترتطمَ على البلاطات الحجرية المحدبة الملساء . نظرتُ في عينيه. رأيتُ دموعاً لا تتناسب وضحكة الهزء الخرساء اللاوية لفمه ! وعندما تقدمَ مني بلا وَجَل ، بصندله الجلدي محلول السير، فُتحَ البابُ على وسعه وخرجت منه امرأةٌ ناحلة لتمسكَ بردن ثوبه ، وتسحبه للداخل . عانَدَها دون أن يزيح عينيه عني! «يللا ، ادخُلْ» قالت. كان صوتها خفيضاً

«تعود بعد ثلاثة أيام . مفهوم ؟»، وفَرَدَ ثلاثة أصابع في يده اليمنى : «ثلاثة فقط» .

عدتَ إلى عمّان ، مخلّفاً حقيبتكَ في مكانها على السرير . تركتَ أخاكَ وحده يتدبر أمره في المكان الغريب . سرتَ إلى جوار أبيكَ صامتاً. هو لم يتكلم ، وأنتَ خرستَ ، حتى وصلتما إلى الزقاق إيّاه . كان الباب على يساركَ هذه المرّة . وكان مُغلَقاً . وكنتَ ، مثلما تتذكر ولن تنسى أبداً ، تغصّ بما لم تدرك معناه ذاك اليوم .

هل أدركتَ ما كنتَ غصصتَ به ، قبل أكثر من ثلاثين سنة ، هذا اليوم ؟

* * *

. . أفقتُ على حُلمٍ رأيتني فيه أسلّم أخي الصغير لأيد شريرة تلاقفتهُ موليّاً ظَهري للمشهد مانحاً قدَميّ للريح ساتراً عينيّ بكَفّيّ باكياً نادماً على اقتراف تلك الخيانة دون أن أشنقَ نفسي على شجرة !

لم تسقط من جيوبي ثلاثون من الفضة ؛

كانت ثلاثةُ أيام !

* * *

لكنّ أيامكَ الثلاثة نفدت . سرعان ما بددتها ، فأعادوكَ إلى تلك القدس التي باتت ، الآن ، أبعد من أن تصلها ولو بالهاتف . لا صوتكَ يصل ، ولا إدراككَ لما باتت تعنيه لكَ وصلَ كاملاً .

فراغٌ هو . أو خواءٌ . ليس لسواكَ أن يؤكدَ أو يُعيّن .

*فأنتَ الذي أعدتَ سمّاعة الهاتف السوداء الثقيلة إلى مكانها ، وهبطتَ على الكنبة المُفرَدَة ، إلى جوار الراديو المكتوم . بقيتَ هامداً في مكانك تحدّق في نسخة «العشاء الأخير» المعلقة على الجدار المقابل لمائدة الطعام الكبيرة . لم تُزِح عينيك عنها : **يأكلون من جسده ، ويشربون من دمه !***

عن الاسم الأصل . ثم ماذا ؟ أعودُ إلى مريم في عمّان ، فترحلُ مريم عني إلى القدس !

أوليست هذه مهزلة ؟ قمة المسخرة ؟

ذاك اليوم ، بعد الظُّهر ، تخاطفنا القبلات المحمومة وجرعات البيرة في الطابق الثاني الخالي لكافتيريا «غولد فينغر» ، عند دُوّار مكسيم . كان جيمس بوند ، *العميل السري 007* ، أسطورة السينما وقتذاك . النسخة الأصلية بوجه شين كونري . وكان فيلماً جديراً بأن تُسمّى الكافتيريا باسمه . ولعلّنا ، حين تخاطفنا القبلات هناك ، كنا نعيش مشهداً سينمائياً رسمناه في مخيلتنا مسبقاً . أو عَلّنا ، دون وعي ، عملنا على تعبئة الحكاية بتفصيل جديد نستحق أن نعيش على ذكراه طوال ثلاثين سنة قادمة . فأن نتذكر يعني أننا نشهدُ على أننا كُنا . وأن نتذكر يعني أنّ هنالك معنىً لأن نكون الآن . وأن نتذكر يُعيدُ إليّ جُملة أبي ، قليل الكلام ، لمّا كاشَفَني بعد سنين بمعرفته لما كنا نفعله على المصطبة الوسطى لدَرَج البيت .

سألته : «ولماذا لم تكن تتدخل ؟» .

فأجابَ بحكمة عُمره المديد : «تحَسبتُ أنَّ ظهوري عليكما سيُفزعكَ، وقد ينقطع نَسلُكَ ! » .

كُنا وحيدين . أنا وأبي . ثم سادَ الصمتُ . هو ؛ يُرسلُ نظرته الجامدة من وراء نظّارته إلى الفضاء المتغبش عبر النافذة ، فيرى مئذنة جامع «أبو درويش» البعيدة في الأشرفية ، يتساقط الليلُ عليها ليبتلعها . وأنا ؛ أُحدّقُ في السجادة برأسٍ هابط وعينين تقرآن خلال تكويناتها العَجَميّة معاني حوار قديم أعاده أبي إلى ذاكرتي ، وما كنتُ واعياً لأبعاده وقتذاك :

«مستقبلها أفضل في مستشفى المطلّع » .

«نعم . التلياني مستشفى صغير ، والبنت كبرت» .

«افعلا ما تشاءا ، لكن لا تحاولا دخول حجرة النوم» .

قال وهو يناولك المفتاح . وعندما شكرته قبل أن تغادره جالساً إلى طاولتكما في «الدارة» ، أردفَ بنبرةٍ قاطعة :

«سريري لي » .

خرجتَ للقائها .

مَن هي ؟ ما اسمها ؟

من هنا تبدأ الفوضى في سردكَ لما حدث . فلا تَقُلْ ، أو تجرؤ ، لتكتبَ أنها كانت «ماسة» . لم تكن ماسة هي المرأة التي خرجتَ لتلقاها في ردهة الفندق ، وتصطحبها بعربتك إلى بيت نجيب الغالبي . أنتَ لم تذهب إلى الفندق أصلاً ـ فهذا من بنات أفكارك الرعناء ، والصور النمَطيّة المتسربة من الأفلام الرديئة إلى القصص والروايات الأردأ . غير أنك ، بمجرد محاولتك رسم المشهد في هذا السياق ، إنما تدلل على إخراجك للأحداث عن أماكنها ، ظاناً أن الرواية حين تُكتب ينبغي حَرْفها عمّا كان يولد لحظة نشوئه . وهذا هراء . أو هو ، في أحسن الأحوال ، لا يَصحُّ دائماً . ربما لأن عهدكَ باحتراف الكتابة لا يزال في أوّله . ربما .

لذلك ؛ سأنوب عنكَ في سرد ما حدث :

كان الوقت مبكراً على موعدكما ، عندما اكتشفتَ أنَّ النهار باتَ رماداً يختنق بغبار الخماسين . ليس لأن زجاج النافذة تغَبّشَ بطبقة ناعمة أبهتت أضواءَ المدينة وحسب ؛ بل لأن هواء الحجرة كان ثقيلاً على رئتيك . ثقيلاً وحارقاً أجبركَ على سحق سيجارتك قبل أن تبلغ جمرتُها نصفَها الثاني . ولأنّ سُعالاً مفاجئاً كشفَ تجرحات حلقكَ القديمة .

نهضتَ وفتحتَ النافذة ، فاستقبلَ صدرُكَ برودةً أنعشَت وجهكَ ، قليلاً ، وأنبأتكَ أنَّ مطراً آتياً لا بُد ، هذه الليلة ، ليغسلَ هواء المدينة ويشطف أسطحها والشوارع .

«لماذا لا تُمطر إلاّ في الليل ؟» .

«حبيبي ! من أي فيلم تافه اقتبستَ هذا الرابيش ! ».

* * *

لستُ حبيبها ، مثلما اعتدتُ التعامل مع صورة مريم على أنها حبيبتي ، طوال سنين غيابها . كنتُ ، في السنة الأولى لاحتلال الضفة الغربية ، أرى مريم سجينةً في قبضة الجنرال ، فيصير كُرهي له كُرهَيْن . يتحول الرجلُ العسكري ، بعصبة عينه السوداء وبسمة فمه المنحرف ، إلى قرصان خرجَ من شاشة سينما الفردوس . ترَجَّلَ من سفينته ذات العلَم المطرز بالعظمتين والجمجمة ، وسطا على القدس ، وأسرَ مريم . فأنا ، حتى تلك الفترة ، ورغم محاولاتي فهم الفكر القومي ، وتكثيفي لقراءاتي عن حرب العصابات في فيتنام وكوبا ، وافتتاني بشخصية تشي غيفارا ؛ لم يبرأ العالم لديّ من تخييل السينما وسحرها . هذا ما أدركه الآن ، إثر تفكيري بما قالته لي منتهى ـ وكانت أجراس إسوارتها تصدر صليلها الهيّن .

قلتُ لنجيب الغالبي ، مستعيداً نفثات أيام مريم العتيقة ، وكان خَدَرُ كأس الويسكي الثالثة المكسور بمكعبات الثلج وقليل الماء قد أزاحَ طبقةً كانت تربض على الروح ـ أو هكذا أحسستُ ليلتها :

«يتراءى لي ، أحياناً ، أن الحب في جوهره مزيج من حُلم ووَهم» .

حَلَّ الزر الثاني لقميصه الحريري الأسود ، وكنا نجلس قريبين من الباب المشرَع على (الروف) المعتم، فبانت مساحةُ الشَّعر الأبيض في أعلى صدره . تنهدَ ، كأنما يُخرج من أعماقه بُخارَ جمرةٍ أطفأت جرعاتُ الكحول الأسكتلندي نارَها ، وسألني :

«أي حب ؟ حَدِّدْ . عن أي حبٍ تتحدث ؟» .

ملتُ بيدي الممسكة بالكأس المتعرق زجاجها الثقيل بفعل الثلج ، أريدَ وضعها على المنضدة الواطئة إلى يميني ، فنبهني بنبرة حازمة :

«حاذِرْ !» .

البدء لا أعثر لها على معنىً محدد ثم أدركتُ ، فيما بعد ، وحتى الآن ، أنها تعني ولا تعني في الوقت نفسه :

«لا شيء يكتمل» .

«الكمال لله وحده ، يا أبي» .

قلتُ ، متفكراً بأنه لم يَخرج بجملته عن المعنى العام .

«والمسيح ؟» .

أذكرُ أنه سألني يومها ؛ فاستعدتُ كلامي عن قوة المسيح ومعناها حين عاشَ بيننا بَشَرياً .

رَدَدْتُ متشبثاً برأيي :

«تلك مسألة مختلفة » .

فحرّكَ رأسه على الوسادة لينظر في عَينيّ . بانت زُرقةُ عينيه باهتةً أطفأتْها مهنة الخياطة للسيدات ، مُنَحّياً نظّارته :

«إنَّ هذا هو ذاك » .

ولمّا وجدني أتململُ وفي فمي ماءٌ قد أدلقهُ ، فاجأني :

«لا تَكُنْ ثوراً ، وافْهَمْ !» .

كان أبي مؤدَباً بالفطرة ، لا يتفوّه بكلمات تجرح أحداً . لذا ؛ فأنا أستبعد أن يكون قد تلفظ ، عند نهيه لي ، بكلمة «ثور» - حتّى وإنْ كانت صفةً عابرةً ، أو معبأةً بروح الدعابة التي يواريها الآباء ، عادةً ، ولا يفصحون عنها أو يعبّرون من خلالها عن أنفسهم إلاّ نادراً .

.. ثم كان أن هَزّني نجيب الغالبي برفق ، فتنبهتُ إلى وقوفه مقابلي . عاينتُ بسمتَهُ كأب ! ليست هذه مما ألفتهُ فيه . أهذا وجهٌ من وجوه غرابته ، أم بقايا الصوت الآتي من الأثيرَ البعيد والعالي لا يزال يرفرف في المكان المفتوح على ليل (الروف) ؟

سألني ، وكانت نبرته دافئة أيضاً ، إنْ كنتُ أرغب في مَلء كأسي ، فقلت له :

6

أنا صاحب مريم الأول . ومريم صاحبتي الأولى . ولي اسمٌ اقتبسه أبي من معجم القديسين المحفوظ في ذاكرته ، وأطلقه عليّ . لم أستطع تحَمُّل تبعات الإسم . إنها ثقيلة فادحة ، ولستُ أنا سوى بَشَريٍّ لا يطمح إلى أن يكون أكثر من ذلك . لستُ سوى رَجُلٍ يَشْقى ليكون بَشَرياً ويحافظ على هويته هذه . وهذا ، مثلما اكتشفتُ عَبْر العُمْر المار كالبرق ، ليس بالأمر الهيِّن . أبداً . فأن تصون بَشَريتَك يعني أن تنخرط في ألف معركة لن تفوز إلاّ في أقلّ قليلها .

للاسم الذي أحمله كرامات وهالات لا أستحقها. أنا ضعيف ، غالباً، ولعلّني ضعيف دائماً ـ إذ أعجزُ عن تحديد أو تَذَكُّر جولات فوزي في المعارك الألف التي خضتها . وربما يكون هذا هو سبب إغفالي لاسمي ، بقدر ما يسعني ذلك ، وإلباس شخصي اسماً آخر حين الاقتضاء. غير أني ، عند تأملي بالمسألة ، أراني أراوح في نقطة التجاذب لنقطتيّ السؤال : مَن يتلبَّس الآخر ؛ الاسم أم حامل الاسم ؟ ثم أخلُصُ إلى التشكك بالقول الذائع : «لكل امرئ من اسمه نصيب» ـ ففي داخل جميع الذين حُمّلوا بأسماء ذات تاريخ بطولي أو استشهادي ، أو أي تميّز آخر ؛ ثمة صخرة تربض هناك تجرّهم إلى تعاسة العجز ومرارته. فالواحد منهم ، رجلاً أو امرأة ، كان أن لُقِّحَ بجرثومة التناقض. الاسم في جهة ، وصاحب الاسم في جهة أخرى ، وبين الجهتين يدور صراع التماثل المستحيل . مساكين هم إذا ما عملوا على أن يتماثلوا مع تاريخ أسمائهم . أنا لم أفعل ولم أسْعَ . غير أن ذلك لا

«كلام فاضي».

«ليش ؟».

«إيش يعني أكون مريم ؟».

«إنتي بتعرفي ؟»

يومها ؛ لم تُجبْ أنها مريم لأنها ، ببساطة ، ولدَت مريم وانتهى الأمر . كما أنَّ الاَسم لا يَخلقُ فَرْقاً ، ولا يميّزُ كياناً يتّصف بخصوصية رغماً عن صاحبه . ذكّرتها بهذا فيما بعد ، قبل أن أجعلها ماسة (أسوةً بغيرها من نساء عرفتهن) ، وبعد أن التقينا إثر حرب الخليج الثانية : الحرب القاضية .

تلك كانت المرّة الأولى نلتقي فيها بعد أكثر من ثلاثين سنة . زمنٌ طويل . مَرَّ زمنٌ طويل ، ولقد تغَيرَت . تغيّرَ العالمُ ، فكان لزاماً أن نتغيّر نحن أيضاً ، أو نموت .

«تغيّرتَ ! ياه كم تغيّرتَ !».

قالت بعد أن تواجْهنا ، مصادفةً ، باصطدام أحدنا بالآخر . ارتقيتُ الرصيفَ خارجاً من سيارتي. كنت متعجلاً ، فحدثَ الارتطام لمّا استدرتُ بظَهري . أوشكَت ، في البداية ، على التلفُّظ بعبارة (أظنها شتيمة) ابتلعَتها حال مسارعتي العفوية بالاعتذار . هي لحظاتٌ خاطفة ، غير أنها أفسَحَت لاندهاشي أن يتحول إلى سِحر ، ثم كان نور الاكتشاف . لم أصدّق . ربما قلتُ :

«أأنت هنا ، في مدينتي!».

أو عَلّني قلتُ كلاماً آخر : سأعملُ على التأكد عند التدوين النهائي. لا بُدّ . كما لا بُدَّ من مراجعة هذا الموقف أكثر من مرّة ؛ فلقد تَغَلّفَ بما يشبه طبقة من خداع الذات بدافع رغبتي في أن يكون قد حدثَ فعلاً . أو بالأحرى أن يَجيء ، إذا كان قد حدثَ ، وفقاً لمشيئتي وهَواي . المهم أنها ، حال سماعها لما لستُ متأكداً من قوله ، حدَجتني بعينيها ذاتهما: الخضراوين المفَتوحتين عليَّ ، ثم تراجَعَت برأسها لتنظرَ وجهي

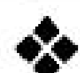
القريبة : على الشارع الذي تصعد منه أملاك مستشفى الطبيب الإيطالي تيزيو ، بحديقة الغزلان الصغيرة التي يحتفظ بثلاثة منها ، غنيمة رحلات الصيد مع علية القوم آنذاك من هواة القنص ـ ويُقال إنَّ حظوةً كانت له عند الملك ! كم كان الرجل الميت جاهلاً ، قبل أن يموت ، وها آن له أن يعرف الآن أنَّ غزلاناً كانت تمرح في حديقة المستشفى . وأنَّ فلافيا ، ابنة الطبيب الشقراء الجميلة ، اعتادت إطعامها من يديها الناعمتين عند أشجار الصنوبر . وأنَّ المُبَشّر الأميركي ويتمان ، أحد أحفاد الشاعر الكبير والت ويتمان ، قد نجحَ ، بعد زمن ، في ما فشلَ فيه معه ـ رغم أطعمة البازارات ـ .

كان آخرها يوم المطر الأول ، حين اختطفَ تلك الفطيرة اللعينة ، زيادةً على حِصته ، وحشَرها بأكملها في فمه قبل أن يلحظه أحد . لم يستطع ، بسَبب من لهفته وتعجله ، ابتلاعها على مهل . حاولَ إزدرادها ، لكنَّ زواياها المتحطبة نتيجة خَبْزها الزائد وسماكتها ، حالت دون ذلك . حاولَ إخراجها بأصابعه دون جدوى ؛ إذ تحولت ، بزيتها المحترق ولُعاب شهيته الفَجعَة ، إلى عجينة ضخمة سَدَّت عليه منافذ الهواء . جحظت عيناه لحَظَة أن بدأ يختنق ، وأخذ يتلفت حواليه مستنجداً بذراعيه يحركهما مثل طائر لا يعرف ماذا يصنع بهما . ثم تحولت حركاتُ جسمه إلى هجوم على الجَمْع الذي تنبَّه أحدهم ، فأخذَ بضربه على ظهره ، عَلَّ اللقمة تخرج أو عَلّها تدخل . كانت ضربات كثيرة قد نالها ظهره إلى أن نجحوا ، فتقيأ قطعةً أفسحَت له التقاط أنفاسه . دمعت عيناه وسال من فمه قوامٌ أخضر . غير أنَّ ما قذفهُ حلقهُ لم يكن كافياً لأن يمنع عنه هبوطاً في القلب . تدهورت صحته بشكل سريع وغريب . اصْفرَّ وجههُ ، غارت عيناهُ ، واستحالَ في ليلة المطر الثانية إلى شبح ! ليس لأنَّ بنيته ناحلة وحسب ؛ بل ـ كما قيل بعد ذلك ـ : لأنَّ الرّب أظهرَ معجزته ، فأنزلَ بعبده السارق عقابه الفوري !

فها هو مطروحٌ على ظهره داخل خشب صندوقه الرخيص ، في كنيسة الروم الأرثوذكس متقشرة القبة ، بينما يقف الخوري سليمان

ثيابُ القوم السوداء ؛ القوم القابعون بتلاصق تلمساً للدفء من بعضهم بعضاً . النساء على اليمين ، والرجال على اليسار ، وبينهما بساطٌ أحمر متهرئ يغطي الممر الذاهب نحو الهيكل . وهناك ، بين باب الهيكل المجلَّل بستارة خمرية والصف الأول ؛ رُفعَ تابوت داوود فوق مصطبة حجرية . تسللتما أولاً على أطراف أصابعكما واجتزتما نصفَ متر .
لكنكَ ، وعندما رانَ الصمتُ ولم يتبقَّ من رنّات الجرس الجنائزية سوى صداها يقرع في قلبكَ ، أحسستَ بأطرافكَ تخذلك . تمنَّيتَ لو أنك بقيتَ في البيت ، وأخذتَ تفكر : **ألم يكن أحلى أن نلعبَ هناك يا مريم؟ أن ندعَ عمتي تُخرج لي سيارتي الحمراء من الرّف العالي لخزانتها ؟ أن نُقَسّم أزرار أبي إلى فريقين ، الأحمر للبنات والأزرق للأولاد ؟ كنت ستغلبينني . أنت ملعونة يا مريم !**
ولأنها كذلكَ ؛ سارعَت بجذبكَ من ذراعكَ ، كأنما حدست نيتَكَ بالتراجع والفرار ، فتبعتها مجروراً وراءها . تسحبتما في الممر الفرعي أقصى جهة اليسار حيث لا أحد ، وارتقيتما الدرجات الصغيرة المتلولبة حول العمود الكبير المنتهية بشرفة خشبية ضيقة ، التي تطلُّ على مساحة الهيكل المفتوحة . صرتما فوق المشهد تريان ما يجري تحتكما وتسمعان .
كان الجسد الممدد داخل التابوت المكشوف ؛ إذ رُفِعَ غطاؤه ، أول ما رأيتَه .

كان رجلاً كئيب الوجه كأنه شَمْعٌ خالص ، بذقنٍ غير حليقة ، بشعر أسود مفروق من وسط الرأس ، وبعينين مغمضتين تماماً . رجُلاً نائماً حتى الموت . جفلتَ لمرآه ، فأغمضتَ عينيكَ بدورك ، لتمنع عنكَ مشهدَ رُعب آخر ، غير المشاهد التي كان أخوك يغريك بمشاهدتها في أفلام دراكولا مَصّاص الدماء ! كنتَ تغلق عينيك ، عندما يهمُّ بغرز نابيه في رقبة ضحيته ، وتعمل على طمأنة نفسكَ بتذكيرها الملهوج بأنكَ في سينما الفردوس ، ولستَ في قصر أمير الظلام . أنتَ في عمّان ، بينما الرجل ضامر الوجه خيالٌ على قماشة الشاشة . وأنَّ عشرين درجة فقط تفصلكَ عن بيتكم . ما عليكَ إلاّ أن تفلتَ من الصالة المظلمة وتخرج



أن نتبادلَ الحكي يعني أن نتبادلَ دورَ البطولة .

حَسَنٌ . لكنه دورٌ لستُ طامعاً فيه ما دمتَ قادراً عليه ؛ فلا تَخَف . إني أتركه لكَ ، ولن أسمح لنفسي بالتدخل إلاّ لملء ثغرات حَكيكَ المكتوب . ولسرد أحداث أراها مهمة ، كنتَ قفزتَ عنها ، سهواً أو عَمْداً (فالإنسان خبيثٌ وماكر حين يتعرضُ لذاته ، مثلما هو نَسّاءٌ متآكل الذاكرة).

غير أن حيرتي قائمة حيال صنيعكَ الدؤوب هذا . فأنتَ مَلولٌ بطبعكَ ، لا تجالِد ولا « تتجمّل بالصبر » ـ بحسب ما يعبّرون . كما أنكَ ، أيضاً ، تنفرُ مما يكتبونه مجرورين بجاذبية العادة وسلطة قوالب التوصيفات السائرة . تَدّعي كتابةً مغايرةً لأنكَ ، مثلما أوضَحْتَ ذات مرّة ، «*لستُ غيري ، ببساطة*».

بهذه البساطة التي أشهَرتَها تلك المرّة ، دعني أُشفي غليلَ حيرتي فأسألكَ عن ماهيّة ما تصنعه ، الآن ، بكتابةٍ أراني كلّما وسعني نجدتكَ فيها لا أتوانى عن فعل ذلك . أقومُ متدخلاً لأصوّبَ ما جرى ، رغم جهلي بما ستؤول إليه أنتَ ، وبما سأكونُ أنا شريككَ فيه . أنتَ ، أنا ـ ليس هذا بمهم . لقد أخبرتكَ أنني لا أطمع باحتلال مكانتكَ أو الأخذ بناصية الحكي ، أو الكتابة ، أو السرد ؛ سَمّهِ ما شئتَ ـ إلاّ للضرورة ومقتضياتها . أو حينما تعجز عنها تماماً لمّا تنام . أو بعد أن يحقنوكَ لتتخدّر ويتلاشى توتر قلبكَ . عليكَ أن تعرفَ هذا ولا تَخَف . وعليكَ ، أيضاً ، أن تتذكر أني أنفّذ مشيئتكَ ، أو هي

وزَغَبٌ حَيي بلا لون تقريباً .

ندخلُ الكنيسةَ ونتخذُ لأنفسنا المواقع المتقدمة في صَفيّ الرجال والنساء ، لنرى المذبح والهيكل والخوارنة بوضوح . أفاقَ أبي مريضاً ، ذاك العيد ، مزكوماً يعطسُ وتدمعُ عيناه . أدركَت أمي ضرورة ملازمته للبيت ولعمّتي التي ما عادت ، بعد الهجرة من يافا ببضع سنوات ، قادرة على احتمال مشقة النزول إلى السيل. كأنما سُلَّت العافيةُ من جسمها و«ركبها المَرَض» ! ، فأرفقتني أمي مع أخي بأختينا ، وانتظمنا في صف النساء . كنتُ الأبعدَ عنها لأنني الأكبر ، والأقرب إلى امرأة شابة على المقعد الخشبي . كانت تتشح بشال صوفيّ طويل ، انفرشَ طرفٌ منه مالئاً مكاني . إلى جانبها ، في آخرِ المقعد ، لمحتُ فتاةً بمثل عمري خَمَّنْتُ أنها ابنتها . ترددتُ متوقفاً عن زحف مؤخرتي كي لا أجلس فوق الشال ، ونظرتُ باتجاه أمي حائراً . ثم لحظتُ ابتسامتين مقتضبتين تبادلَتْهما ، سرعان ما تحرَّكَت المرأةُ الشابةُ على إثرها مفسحةً مساحةً تكفيني ، فجلستُ برأسٍ غاطس بين كتفيّ المرفوعين . باتت الصغيرةُ محشورةً بين أُمها والفراغِ في طرف المقعد ؛ فتذمَّرَت :

«ماما ! شوهاد ! إف !».

فأخرستها على الفور :

«بِدّيش أسمع صوتك ! فاهمه !».

أذعَنَت البنتُ ولم تُخرج صوتها ، وانكمشتُ أنا أكثر . بعد قليل ، نظرتُ إليها بطرف عيني ، فكانت تمسحُ بردن معطفها الأحمر دموعاً خرساء . التقت عيوننا ، بينما الشالُ الصوفي الأخضر ، بخرومه الواسعة ، يتهدل بين نظراتنا ، مشوشاً ومخايلاً . لكنني ، وللمرة الأولى، جاءني مَن خَمَشَ قلبي بهمسه فيه : تعرفُ البناتُ كيف يكرهنَّكَ !

رأيتُ ذلك في عَينيّ البنت الصغيرة .

رغم شال أمها الأخضر ومخايلته ، إلاّ أنني التقطتُ المعنى في

أيضاً، وبقيت صامتاً . وكذلك ظلّت السيدة عند شُبّاكها المرتفع تنظركَ بعينين لا تميّزهما ، لكنك ترى التماعاً ، يكاد يكون أبيض ، يشعُّ من دائرة رأسها الغاطس في الظل الكثيف . التماعاً يذكّرك الآن بهالات القديسين المستديرة المرسومة خلف رؤوسهم في أيقونات الكنائس . مضت لحظات ، دقيقة ، قبل أن تعاود مخاطبتكَ :

«هل بَردتَ ؟» .

كنت بالفعل تتلقى تيّار البرد الهابّ من باب الحجرة ، الذي تركته مشرعاً حين دخلتَ هائجاً ، فيشتدُّ ارتجافُ بدنكَ ، وتعدم الإحساس بساقيك المثلجتين . ثم قالت بصوتٍ خلته يخرجُ من أمكَ :

«تعالَ » .

كان صوتها دافئاً ، وله رائحة قشور البرتقال المنثورة فوق جمرات «المنقل» النحاسي في بيتكم ، فتقدمتَ إليها .

« اجلسْ» .

قالت ، مشيرةً بيدها إلى أول مقعد قريب منها ، فجلستَ جاعلاً رأسكَ بين كتفيكَ وعيناكَ تنظران الطينَ الذي تَخَلَّفَ عن حذائيكَ الغارقين بالماء الموحل . مدَّت يدها التي أشارت بها قبل قليل ، والتقطَت مريولكَ الكُحلي المنَقَّع . ولما فردَتْهُ لتتحسس قماشته بباطن كفها ، علّقت كمن يتنبأ بحقيقة آتية :

«أُمكَ ستضربكَ ، على ما أظن » .

كنتَ تعرف هذا ، وتخشاه .

. . وكان أن نادت ، فيما بعد ، على « خضر» الذي مَرَّ حينها خلف سور المدرسة الواطئ . «خضر شاويش» صانع الطبول وبائع الفخَّار . طلبت السيدةُ أن يوصلكَ إلى البيت القريب على الجانب الآخر للسيل .

«الولَد سيمرض» .

القادرة على قهر السيل ، ولَجْم اندفاعات تدميره . ننسى زمجرات الغضب في الخارج الغرقان ، ونطفو فوق حرير ما كانَ يوماً . نستعيدهُ على طقطقة الكستناء المدفونة بين جمرات المَنْقَل ، والمذاق الحلو للبطاطا الشتائية في عِزّ موسمها .

كانت يافا مدينة تجمعهما لمّا يغطسان بالحديث عنها . وكانت ، مثلما يتراءى لي الآن ، حكايةٌ كبرى لا يستطيع أن يعيشَ واحدهما خارج مداراتها . هُجّرا منها ؛ لكنهما يحلمان بها دائماً ، ويحكيان . يحكيان ويغوصان في مياه بحرٍ لا نراه ، نحن الصّغار تلك الأيام ، ثم يخرجان بملامحَ مَلّحها دَمعٌ خَفيّ .

* * *

أبالحكايةِ نستعيدُ المكانَ وأنفسنا ، أم بالحكي نعيشُ الحُلمَ ونتدثّرُ به ؟

هيّا يا خضر . احك . لكَ دورُ البطولة الآن . لن أقاطعكَ أنا ، كما يفعلُ بي قريني ، المُعتّزّ بذاكرةٍ يَدّعي أنها مُصانة . مَن يدري ؟ . . لعلّه مُصيبٌ والساهي أنا .

احك . وسأكتفي بتسجيل حكايتكَ ، بحسبكَ ، طبعاً .

أُسجلّها على شرائط وأفرغها على الورق . قد ألجأُ إلى تحوير بعض كلماتك . أو أدعها كما هي لتعبّر عن لغة ذاك الزمن . أو أتدخل في صياغة سردكَ ـ فأنتَ ربما لا تدركُ أنَّ الكتابة ليست هي الحكي . وعليكَ أن تعرف ، أيضاً ، أنَّ قانوناً خاصاً لكلٍّ منهما يؤدي بالحكاية لأن تصيرَ حكايتين .

* * *

أجَل .

تصيرُ الحكايةُ حكايتين . تصيرُ أكثر .

هي الأمور هكذا على الدوام . وأنتَ لم تكتشف هذه الحقيقة إلاّ بعد مرور أكثر من عشر سنوات . بل أكثر بكثير. عشرون سنة مرّت ،

8

دار الشريط ، فطلعَ الصوت . أخذتُ أفرغـه على الورق . كنتُ ، كلّما تعبتُ من التقدم بالشريط ثم الإعادة للربط بين الكلمات ، أعملُ على تحريره بتنقيته من زوائد الكلام . وكنتُ ، كلّما استُفزَّت ذاكرتي بكلمة من خضر ، أو بموقف مفارق ، أو بمشهد مثيل أو شَبيه ؛ أدونُ ذلك على هامش الورق .

* * *

أنا خضر حسن عمر الشاويش ،

من سكّان يافا سابقاً .

أبدأ رحلتي بالرياضة .

كان عمري حوالي أربعتعشر سنة . بدأت ألعب مع ولاد الحارة من جيلي . عسكر وحراميّة . عشرة وعشرة . كنت النشيط بينهم . كانوا يقولوا : خذوا أنتم التناعش وإحنا التمانيّة شرط أن يكون خضر معنا . كان النشاط عندي عبارة عن «خفيّة» . ماكنتش عارف إني مش قوي . وفي يوم راحوا الشباب للبحر . ولاد حارتي . تمرّنوا على رفْع الحديد ووصلوا للسبعين كيلو . كنت واقف معهم أتفرّج . الحديد هناك على طول الشّط ، و«الرّقّيعة» كمان . على البحر كان خمس ست شباب بيصلوا السبعين . منهم بيرفع أكثر ومنهم أقلّ . أذكر واحد اسمه

بارز . سألتُ الشاويش في حصّة التدريب العسكري عن ذلك ، فقال إنه لا يعرف . كُنا التزمنا ، أسوةً بجميع طلاب المدارس وموظفي الدولة ، باستخدام «فوتيك» الكتّان الكاكي في زينا اليومي. فنحنُ خرجنا من حرب - قالوا ؛ ولكنني فكّرتُ : نحن لم ندخل حرباً، فكيف نخرجُ منها !

صرت أروح كل يوم ، عند المغرب ، على البحر . فيه هناك عريشة، مثل قهوة ، ينصبوها في الصيف ويفكّوها في الشتا . وعلشان الرياضة الحقيقية بعد العصر ، كانوا يركنوا الحديد ورا العريشة حتى يصير الوقت المناسب . فكنت أروح وأدفع قرش ، وكان القرش مش قليل ، ومرّات قرشين . أناول «الزلّمة» القرشين وأدخل ورا العريشة. لأ ، ممنوع . معلش . راح أكون لوحدي . وهيك صرت أتمرن . حاولت جهدي أن أقطع العادة ، وإذا غلطت وعملتها ، أقعد في الدار «ألطّش في حالي» . مرة ومرتين ، حتى تخلصت منها .

وكنتُ فكرتُ ، خلال تلك الفترة ، أنَّ انسحاب مريم من أحلامي سببهُ الحضور الطاغي لنادية لطفي . نادية لطفي التي دوّختني بمجموع قبلاتها المحمومة لعبد الحليم حافظ في فيلم «أبي فوق الشجرة» . غير أنَّ تداخلاً خبيثاً لصورة مريم في وَهَج نادية لطفي ، جعلَ مني شاباً يطفو فوق العالم . أُحلّق مع تلك المرأة الجامعة لهما ، بلا أجنحة ، تماماً كإحدى لوحات شاغال التي باتت ، لمّا وقعتُ عليها ، تمثيلاً خارقاً ، نورانياً نوعاً ، لحالتي .

فإذا كان خضر «يلطّش في حاله» كلّما مارسَ العادة السرية لأنها تعجزه عن حَمْل الحديد؛ صرتُ أستعيضُ

ورمى بالورقة نحو غانم ، أو النبيل ، وسألني :

«هل تدخّن ؟».

قلتُ: «نعم أدخّن» ، لكنني لم أرتح لطريقته في مخاطبة صديقي . أخرجتُ علبة الـ فيلادلفيا من محفظتي الصغيرة ، السائدة ذاك الزمن ، وقدمتُ له منها . قبلها . لم يقُلْ «شكراً» . أنا لم أنتظرها . لكنها العادة . وفكرتُ بأني أدخلُ فعلاً عالماً جديداً . زهوتُ بهذا وتناسيتُ طريقته الآمرة . ولتمرير الوقت حتى يعود صديقي ، أخذ «أبو الفدا» ينثرُ جُمَلاً قصيرة مثل : *طريقنا طويلة ، ستكون ثورتنا حتى النصر والتحرير . . تأكّد ، شهداؤنا في الجَنة ، العَرَب تاجروا بنا .* ثم أخذ يتحدث عن حكاية الهجرة الأولى واستقرارهم في أريحا. وقال : نزحنا من عقبة جبر ، *لكن الأصل من جهة العباسيّة* .عندها ؛ سرعان ما أجهضَ زهوي بحميمية حديثه معي ، لمّا أجبته عن سؤاله : *مِن أي بَلَد أنتَ في فلسطين ؟*

«لستُ من هناك . أنا من عمّان».

إذ تغيّرت لحظتها ملامح وجهه . كأني عاينتُ انزعاجاً في عينيه ، أو ما يشبه ذلك . كأني رأيتُ تردداً أو حيرةً . لكنه لم يمهل نفسه أو يمهلني طويلاً ؛ فسألني :

«طيب. أنتَ لستَ منا ، فلماذا تريد أن تكون معنا ؟».

أسقط في يدي . حِرتُ في سؤاله فلم أعثر على إجابة ، بعد تلكئي ، سوى :

«يعني ، ماذا يعني لماذا أكون معكم ؟ مش فاهم !».

نظرتُ إلى عينيه علّهما تفسّران لي ما نطَقَ به فمه ؛ فعاينتُ رواسبَ القذى ما تزال في الزوايا.

- **ماذا كنت تعمل وقتها ؟**

والله يعني . . .

- **هل كنت في المدرسة ؟**

لأ ، ما رحتش المدرسة . لا تواخذني ، أعمال ، بيع مُشترى ، أبيع أشتري . أشتغل مثلاً عند ولاد خالتي يعني . أهل الفخّار، وشَغْلة الطبلات وقتها ، سابقاً .

في المدرسة انخرطتُ في تنظيم الطلبة أولاً . كنتُ أحد أوائل المنتمين له . المسؤول عني طالبٌ أنيق يجيد التحدث، من أولئك المشهود لهم بالنجابة ، وصاحب العلامات الأعلى في صفه ، وابن عائلة معروفة . نجتمع في بيت أحدنا . نتحدث عن كل شيء ولا أخرج بشيء لا أعرفه. ثم أستلم حصتي من المنشور الجديد لأوزعه ، خفيةً ، على مقاعد الطلاب في صفوف المدرسة. كادوا في مرّة يمسكون بي . لا يهم ، قلتُ لنفسي . غير أنَّ فتوراً أصابَ اجتماعاتنا عند حلول امتحانات نهاية العام. صارت تتباعد وتخلو من كلامٍ لم نَقُلهُ قَبْلاً . ثم لا شيء. انقطعَ الحبل. صادفتُ الطالبَ الأنيق مراراً . نبتسمُ في وجوه بعضنا بعضاً ، فأعتقدُ أنه سيسلّم ويحكي. لكنه لا يسلّم ولا يحكي .

بعد سنوات وسنوات ، وكنتُ كبرتُ معها ، بتُّ أشاهده يناظرُ على شاشة التلفزيون . أُنصتُ إليه ، فأَسمعُ حديثاً مرتباً منسقاً محسوباً . أسمعُ كَلاماً أنيقاً ، فأقول : هكذا، إذَن ، يتحدث المسؤولون !

- **ماذا كنت تشتغل إضافة إلى الطبلات ؟**

كمان. الأشياء متوفرة . وأنا اتّبعت الرياضة . المصروف مش ناقصني. أكلي وشُربي ولبسي كانت ، يعني ، متوفرة . خصوصاً خالي. خالي كريم . بَس أهلَي . . .

ـ ماذا كان يعمل ؟

والله اسكافي . بَس رجل طيّب . وزوج خالتي كمان . بيشتغل في الفُخّار . رجل طيّب . ما قصّروا في حقنا . أهلي بعاد عنّا . هَذول أهلي . الحق يقال . أهلي هُمّه دار خالي . وهنا ابتليت بالرياضة . أرمح إلى تل أبيب . أمشي من يافا حتى تل أبيب ، ووين ما أشوف الحديد . . (**صوت احتكاك عود ثقاب واشتعاله**) حتى صرت معروف. وبعدين إجا الشتا وخَفَّتْ رياضة البحر ، وإلياس الشعّار تعوّد ينقل إلى سوق الخضار . .

ـ ينقل ماذا ؟

عريشته . ينقلها وينصبها في سوق الخضار أيام الشتا. جُوَّه يافا. آه. لأنه في الشتا النَّوَّةْ بتسحب كل شيء على الشَّط. ماحَدّش بيقدر عليها ، والحديد عنده هناك. أروح للسوق وأتمرن . وفي يوم دخل واحد لمحل إلياس الشعّار وقال : يا شباب ، هناك واحد إنكليزي نازل بيرمي بالبرتقال من السيارة وما حَدّش فاهم عليه .

ـ في أي سنة حدث هذا ؟

والله تقريباً ، أذكر ، في الستة وأربعين . قبل «الطَّلْعَة» بسنتين . سألته وين هو الإنكليزي ؟ أنا كنت « بَلَطِّش» شويّة إنكليزي . بريطانيا عندنا وكُلّها في فلسطين وكنت أسمعهم لمّا بيحكوا. آه . رُحت وشُفت الإنكليزي فعلاً بيحاكي رجل إنُه البرتقال هذا ما بينفع . لا يناسبنا. البرتقال راح يدخل «الكمب» ويُفحَص . أنا راح آخده للمختبر . شايف يابا ؟ الإنكليزي بيحكي للرجل إنه البرتقال مش حيدخُل الكمب قبل فحصه ، والرجل مش فاهم ليش عَمّالُه بيرمي البرتقال . سألت الإنكليزي : واي يو آر . . ، المهم ، أجابني : قُلُّه إنه. . . ، وعلِمَك ،

هناك كانت المفاجأة بالانتظار . ونحن « يا غافل إلَك الله! » ـ كما يقولون أيضاً . كأنه غفلَ أنَّ القيادةَ العامة للجيش على طريقنا . وانفتحت بوابات جهنم من حولنا، دون أن نعرف كيف ومن أين استيقظَ الشيطان !

المهم كان ما كان ، وصرنا في قبضة الضابط المناوب . كانت الرُّتَب الذهبيّة تغطي كتفيه العريضتين . رأسه كبير، أسمر البشرة ، بعينين أحمرهما السَّهَرُ ، لا بُدّ ، والقلق. وربما الخوفُ كذلك . عينان كالدم تنظران في وجوهنا .

وكانَ ، رغم ذلك ، هادئاً !

قالَ وقُلنا . سألَ وأجبنا بحسب ما كان . تأكدَ من أننا لم نطلق النار من بندقيتينا . عددُ الرصاصات كاملة في أمشاطها ، وليس ثمة رائحة للبارود في الفوهتين . ثم سألَ ، لّما عرف من نحن ، بأسمائنا الحقيقية ، وباستغرابٍ صادق :

«لا أفهم . لستم منهم ، فكيف تكونون معهم !» .

عندها ؛ تذكرتُ «أبو الفِدا» ، فرأيتني أُحشَرُ بين سؤالين استنزفاني، حتى اليوم .

ـ بطل الجيش البريطاني .

بَطَل مش قليل . آه ، وأنا لا قادر أطلع ، ولا قادر أهرب ، ولا قادر أحكي . وإنت بتعرف ، هذا لازم يكون بَطَل تحت إشراف دكاترة ومتخصصين . وأنا ! آه ؛ أجهل أبواب المصارعة اللي حياخذها وشو حدودها لّما يجاوبني على حركاتي . أي نَعَم القوة موجودة ، والمصارعة مارستها ، وماحَدّش غلبني ، خصوصاً على البحر ،وكنت أفكر طول الوقت . وفي يوم ، وكنت أقلي بيض ، جاني واحد من العساكر الإنكليز وكان أضعفهم : ماسلز ! ناداني . نعم ؟ تعال ، هَيّو وصل

لا بأس ، ولكن .

لا مهرب لكَ . لا مهربَ لكَ إنْ شئتَ التمادي في ألاّ تكون والعالم من حولكَ ما أنتما عليه فعلاً ، إلاّ أن تلجأ إلى عادة البَشَر الخالدة .

عليكَ بالكذب إذَن . فالكذب ، كما يُقال ، مِلْحُ الرجال .

فماذا ستكتب ؟

الأبواب وتشـرعـهـا على يَبـاب بلا نهـاية . . فـلا تكـون أنتَ أنتَ ، وتستحيلُ الحكايةُ إلى سَرابٍ وقبضِ الريح .

إذَن ؛ لا تحـاول أن تتـمـادى ، واكـتف بمريمكَ الصـغـيـرة وبعض الحكايات المنمنمة عنكما . ذلك سيكون أكثر أمناً ، وسيقع في وعي الناس هَيّناً وشَيّقاً ، على الأغلب ، وسيرضون بما ستجيء به . فأنتَ تدركُ ، بلا أدنى شك ، أنَّ خـروجكَ النهـائي عَـمّـا يتـوقـعـونه منك ككاتب ـ أو حتى عصيانكَ العَلَني لما يحبونه لأنهم يعرفونه ـ ، سوف يودي بما تكتبه لهم إلى الجحيم .

فحذار من الجحيم ، ومن نار جهنم .

أسمعتَ ؟

عليكَ أن تدعو ، وأن تستدعي ، وأن تستعيد ، وأن تُعيد تكوين العالم ، وأن . . . ، أنتَ تعرف ذلك كله ـ ولكن حذار .

فخُذْ السردَ عني إذَن ؛ لقد حانَ دوركَ لأن تحكي .

كان حلماً ما رأيته .

وما رأيته سأحكيه :

حينما خلعتُ الأقفالَ عن أبوابها وشرّعتها ، كان العُباب بلا نهاية . ليس ثمة يَباب . أمواهٌ عظيمةٌ أينما يممتُ وجهي ، واليابسةُ امحَّت . لا يزال القار مبْتلاً ويرشح متقطراً . القارُ الذي أحكَمْتُ به الأبوابَ لأحمي الفُلْكَ من تدفق المياه إلى جوفه . رأيته يتمدد أسودَ متشققاً كلّما وَسَّعتُ من فتحي للأبواب . لا حياةَ إلاّ لمياه فوق مياه ، وثمة البَرْدُ يهبُّ من الخارج يسوطُ وجهي . مددتُ رأسي ورفعتُ عَيني نحوِ السماء ، فشاهدتُ العلامة . من الماء إلى الماء ضربَ القوسُ القُزَحيُ بطرفيه وبانَ . ثم كان أن خاطبني صوتُ القهّار قائلاً : «***هذه علامةُ الميثاق الذي أنا أقمتهُ بيني وبين كل ذي جَسَد على الأرض***» عندها ؛ فتحتُ فمي وقلتُ : ها أنا أنجو ، بمشيئته ، دونَ جميع الخَلْق من ذوي

أدركتَ ، في الوقت نفسه ، وعلى نحو غامض ، أنك ستدخل مرحلةً مجهولةً من عُمركَ . مرحلة سيكون للّعب غير المحسوب فيها قسطاً أقلّ، فوجمْتَ متطلعاً إلى أخيكَ الأصغر .

كان يتلهى ، كعادته ، متشاغلاً عمّا يدورُ حوله بأمرٍ ما ـ لكنه لم يكن غافلاً أبداً .

هل تَذكُر ؟

«وحَلالَك ياللخو . مِن وين إنت ؟».

«من فلسطين» ، أجابه كمن يشهد على نحوٍ قاطع . بسرعة .

«ها . ليّا ابن عَمّ مات في فلسطين . يقولون عنها باب الواد . تعرفها ؟».

«أعرفها».

«كان سايق دبابة . استشهد هالمسكين وهُوّه جُوّاها . دفنوه مَطْرَح ما مات !».

وقبل أن يُفسح لخضر أن يُعلّق بشيء ؛ استدارَ جاذباً ابنه وهتف ، بينما يبتعد به وصوت الطبلة الورقية يتصاعد :

«فلسطيني ! الله يكون بالْعُون ياللخو !».

كنتُ سأسأل خضر ، ذاك العُمْر ، عن حكاية باب الواد تلك والدبابات والحرب . غير أني أجّلتُ هذا ، ناظراً صوب العَيِّل البدوي حاضناً طبلته يكاد يتعثر بحجارة السيل الناشف :

«لن تُعَمِّر طويلاً . الولد سيكسر الفخّارة أو يخزق الورقة».

فيسارع خضر ليردّ عليّ بعفويته وهدوء كلماته :

«أعرف . القروش القليلة لا تشتري الفَرَح الكثير !».

لم أكن ، حينذاك ، أعي المعنى كاملاً ؛ فأهز رأسي من غير أن أتأكد إنْ كان خضر يبيع السعادة بالوزن ، أم بالكميّة ، أم بالأمتار ، أم بماذا ؟ المهم .

كان الصغير يأخذ ، حال دخوله البيت ، بالقَرْع على طبلته كيفما كان . بيده ، أو بعصا من خشبة زائدة التقطها من أمام دُكانة «عبدو النجّار» . يقرع على الطبلة ويجول بين الحجرات ، فتقوم القيامة :

«أي طَرَشْتنا !».

«بَسْ هاي طبلتي وأنا حُرّ فيها . ليش كسرتيها ؟ ليش ؟».

القادر على ابتلاع الناس ، بمن فيهم أبناؤه ، واحداً واحداً واحداً ، بينما تجحظ عيناهُ الناريتان وتذهبان صوب أُفق مجهول لا تعرفه ، لكنكَ تحدسُ بأنه بعيد ، وبأنَّ لا شَبَعَ إلاّ بعدما يتقوّضُ البشَرُ جميعهم ، ويُضَرْسون تحت فكوك وتروس الانهيار الشامل !

أيُّ واحدة من الخاتمتين ستكون خاتمتُكَ ؟

تفيقُ ثانيةً ، ويتراجع سؤالُكَ . . أو سؤالي .

ذهنُكَ الآن صاف. عيناكَ ثقيلتان : عيناكَ ترسوان على السفينة المعلّقةَ على الحائط : السفينة الغارقة في ضباب كثيف لا يُخْتَرَق ، بانتظار صَحْوٍ يلائم رسوها ! وجسدكَ راقدٌ مستسلمٌ لمشيئة الآخرين وحِكمتهم. أنتَ الآن متروكٌ لآخرين يتدبرون أمركَ !

أحزينٌ أنتَ ؟

لا تحزن. ابْقَ على صفاء ذهنكَ . لا تستسلم للتصدُّع . إيّاك . اعتكَرَت روحُكَ وخَفَقَت لأنَّ حنينكَ القديم أفاقَ . دعْهُ يَمُرّ . لا تتشبث به . سيجرّك إلى نوبة بكاء جديدة ، وسُيعكّرُ صفوكَ . عندها ؛ سَتَكُف عن أن تكون أنتَ كما تريد. الحنينُ عاطفةٌ جارفةٌ كالطوفان . العاطفةُ إرباكٌ للذهن والتعقُّل . هي النوستالجيا عدوة الكتابة التي تبتغي؛ فلا تلجأ إليها . وها أنتَ تتذكر. نَقَلتَ هذا التصريح عن كاتبة ستتذكر اسمها إنْ غابَ عنكَ الآن . لا تجهد ذاكرتكَ المعطوبة وإلاّ . . . ؛ تبتسم؟ تسخر ؟ ممَ تسخر؟ طيّب . لا تزعل . إهدأ لتعودَ إلى رُشدكَ ، ولتقولَ إنَّ البَلَدَ بكَامله يعاني نقصاً في فيتامين B12. إنَّ البَلَد مجروحٌ في ذاكرته فتراه ينزف ماضيه : وتراه ينسى خطاياه : وتراه يدفن طفولته وينام ماشياً في الجنازة .

أجَل . ينسى خطاياه ، ويدفن طفولته ماشياً نائماً في الجنازة . لحظتها ؛ خطرت لكَ صورُ أخيك باسيل وأختكَ عفيفة . ماتا طفلين ، قبل أن تولد أنتَ وأخوتك الثلاثة ، فلم تَمْشِ في الجنازتين . كانا البِكرين . جميلان في الصوَر ، وفي نسخة من الكتاب المقدّس يُحتفَظ

شبابه وزها . تماماً كالنهر . فالنهر ليس هو النهر ، وتحت الجسور جرَت مياهٌ كثيرة .

التفَتُ برأسي وأنا راقد على السرير صوب النافذة . كنتُ أفقتُ منذ وقت . لم أسمع سوى أنين جارتي داخل حجرتها خلف الجدار . كان يأتيني رتيباً منتظماً موقوتاً كأنما آلة صَمّاء تتحكم به . ثم يكون أن تُطلقَ زعقتها المبتورة كاستغاثة ، فأتخيّل يداً سارعَت لتطبقَ على فمها . فمها المزموم المنكمش على أوجاعها بالتأكيد. لكنها لا تلبث أن تعاودَ بثَّ أنينها. ما كانت أحذية ملائكة الرحمة المناوبات ، المطاطية ، تعبثُ بصمت الممر البلاستيكي ، أو تكسرُ قشرته الهشّة .أصختُ السمعَ متقصداً هذه المرة . لا صوت . أو عَلَّ حواراً كالبرقيات السريّة كان يدور ؟ حواراً مبتوراً ، مكتوماً متكتماً بالأحرى ، ثم الصمت من جديد. عندها ؛ تتراءى مشاهدُ جنسٍ بلا صوت ، منتقلةً من قصص يوسف إدريس إلى الحائط أمامي. وعندها ، أيضاً ، أرسمُ لنفسي (مثلما التعديلُ الذي نجريه على صورة الموناليزا بفجاجة) ابتسامةً أردتُها شيطانيّة شريرة !

في الوحدة والصمت يمكنك أن تكونَ أنتَ وأكثر . ملاك وشيطان . ساذج ولئيم . قبيح وجميل . الوحدةُ والصمت يمنحانكَ قدرةَ أن تكون في الداخل والخارج في الوقت نفسه . أن تعاينَ نفسكَ وأن تكتبها . أن تكون الكاتب والمكتوب ! لا أحد يمنعك . لا سلطة بمقدورها لَجْمَ خرقكَ لحدود كينونتكَ .

كنتُ أتسلّى . كنتُ أقتل الوقت ، وأستعيض عن نقص النيكوتين في دمي الآخذ بالتجلُّط بالمراجعة البيضاء لكتابتي : التي كانت ، والتي ستكون .

ثم التفتُ برأسي ، بعدها ، صوب النافذة مرةً أخرى ، فكانَ أن تراخَت في تلك اللحظات عتْمةُ الفجر قليلاً ، واصطبغَت السماء بدكنة بين السواد والزُرقة القاتمة . لكنني ، بعد وقتٍ أسلَمْتُ فيه نفسي لخمودَ

وضحكت لكلمة جديدة تعني «النسوان السايبات» .

«ولَك لأ ، مش هيك» ، نَتَرَت كلامها في وجهي . ثم ابتسمت بدورها ، قبل أن تجرّب إفهامي ، معلّقةً على ضحكتي الخبيثة :

«ضُحكة بَلا سنان ! ولَك اسْمَعْ . شرشوحه أو شرتوحه يعني الـمَرَة اللي لِبسها بيكون كيف ما كان . حايا لله . يعني . . يعني ، متل لِبس إم مريم !» .

عندها ، رأيتُ أبي يُملّس بأصابعه الناعمة على امتداد أنفه الكبير ، حاكّاً مُربّع شاربه نصف الشائب موديل هتلر ، قبل أن يُنبهها إلى :

«صحيح إم مريم يا بابا بتلبس من سوق البالِه . مصاريها قليلة . بَس مِش شرتوحَة» .

أذكر ذلك الحوار . وأذكر أنّه رفعَ نظارته عن عينيه الصغيرتين ، بزرقتهما الخفيفة ، وركنها فوق طيتين من قماش الساتان الخمري الزلق اللامع ، لزوم بِطانة الثوب ، ثم حَكَّ جبينه العريض كأنما يفكر .

«بالعكس . أنا بشوف إنها بتلبس متل الأكابر !» .

قالَ مستنتجاً مما استحضره في خياله ، فصمتت أختي . غير أنَّ وجهها لم يقُل إنها راضية بما سمعت . لم تكن مقتنعة أنَّ ملابس سوق البالة الرخيصة تجعل من أمك امرأة ذات أناقة ما ! «مَرَه مرتبة» يعني . وأنت أيضاً ! عرفتُ يومها أنك تلبسين ، كأمك ، من البضاعةَ المكوّمة على بسطات الباعة في الزقاق خَلف سوق الخُضار : أكوام من الملابس المتغضنة بعضها فوق بعض : قمصان قطنيّة وبابلون وفانيلاّ وحرير صناعي ، ويصدف العثور على ماركات من الحرير الطبيعي ! منها السادة والمقلّمة

يتعذّب بلا وَجَع ! وعندما يعوده شاكر الورّاد ، جاركم القديم طبيب العائلة ، كل يوم أو يومين ، يرجوه بكلمات بللها لعابُه المتسيّل من جانبي شدقيه شبه المطبقين ، ويخرجها مع تَشكيَه من فكّه المسْوَدّ :

«دخيلك يا دكتور ! رَيّحني ! بدّي أموت ! مَعَك إبرة ؟ شو هالعيشة الشرشوحة ! خَلّصني من هالعزاب !» .

إذن : العجزُ إذلالٌ لا يطيقهُ العجوز الذي كان حين يعاينُ الأناقةَ يشهدُ لها .

حياته في آخرِها، وآخرُها «بَهدَلَة» ! آخر الخيط في ثوب عُمره يتدلّى «مشرشراً» .

أين مقصُّ الله ليقطع سيرة الخيّاط ، ويلفّ بدنَه المتفسخ بأقمطة الجوخ الإنكليزي الممتاز ماركة «هيلد» ؟ أين الميتة الكريمة ؟ أين رحمة الختام ، ونعمة الخروج بالسّتْر دون فضيحة المَهانَة ؟

أين عَينُ الرّب تعاينُ أُفولَ عَبْدِه وترعاه بالمحبة ؟

أين العناية الإلهيّـة !

* * *

هو الصمتُ إذَن .

من عُمقه المغلّف برائحة النظافة الفائقة استعدتَ صدى اسمها الذائب . أعدتَ كتابته ، ولو في الخيال والتمني ، فكان «ماسة» . ما الفرق ؟ أن تكونَ مريم أو ماسة ؟ أنتَ تسأل مستخفاً . ما المهم في الأسماء ؟ غير أنَّ تغاضيكَ الذي أُدركه فيك ، لأني الأقرب إليك ، لا يعني تفاهة السؤال . أبداً . ثمة فرق بين مريم الصغيرة وماسة الكبيرة . مريم اللاهية ، المراهقة لمّا سمحَت ليدكَ ، من تحت تنورتها المقلّمة ، أن تدخلَ لتتحسس فخذيها الصلبتين وتصعدَ إلى تكوّر بطنها الصغير . كان دافئاً . جميع أشياء مريم دافئة . هكذا كانت، كما تذكرُ ولن تنسى . فالأصابع ، كما الجسد بكُلّه ، لا تفارقُ حنينها إلى معشوقها ولا تنساه . . لو تعرف . ولأنَّ ما يجري في الرأس والبدن لا دخل له بما

القسم الثالث

اليمبوس

«ضَعيه وتعالي نحلّق في سماوات أُخرى !».

وحين أنصتنا إلى وجهه الأوّل للنهاية ، وقبل أن تقلبه للثاني ، علّقتُ :

«ما هذا ؟ كنائس وقداديس !».

«ربما . ماذا رأيتِ أنتِ ؟».

فناورَت : «أنا أسمع الموسيقى . هل تراها أنتَ ؟ ».

فأجاب : «أسمع ، وأرى ، وأحس».

فسألَت : «أخبرني ، هيا . أنا فضوليّة ».

فقال ، بينما تجولُ عيناه في السقف :

«مع هذه ، أنا لستُ من هذا العالم ! أنا إنسانٌ آخر . لستُ هنا الآن !».

عدتُ لأعاينَ وجهه .

كان تحركَ في الأثناء . بانَ السوادُ تحت عينيه أقلّ قتامةً . إنه الانقطاع القسري عن التدخين . خطرَ لي ، لحظتها، أن أسأله عمّا يرى ، ويسمع ، وبماذا يحس.

لكنه أفاقَ دون أن أنتبه . كنتُ سهوتُ ، لا بُدّ .

قال مازحاً ، بنبرة مَن لم يكن نائماً قط :

«أما زلتَ ترصدني ؟ أنا لم أمُتْ بعد».

وداع ! وثمة مَن حلمتُ بهنَّ ، بسبب الرغبة غير المتحققة على الأرجح، فبقين هاجسي المستيقظ يزدنَ من تقلُّب لياليَّ وسُهدها . وكذلك ، هنالك حيوات نساء قرأتُ عنهنَّ في الرَوايات ـ وها إني أكتبُ عنهنَّ جميعاً . كأني بهذا أريد أن أمتلكهنَّ دفعةً واحدة . أن أختزلهنَّ في هذه التي قالت لي ، فيما بعد ، إثر انقضاء زمن من الآن ، حيث توقفتُ في طريقي إليها عند الإشارة الحمراء ، قبل الالتفاف على يمين تلال التراب وقوالب الإسمنت الجاهز الضخمة وصفائح الحديد الصّلب وأعمدته المنذرة بعدم الاقتراب من مشروع الجسر العالي والنفق الطويل العميق :

«تفتشُ فيَّ عن امرأة نموذج تكتبُ عنها . تُعرّيني كي تعرّيها بحذق في الكتابة . تملؤني بالحديث كيما ترصد ردّات فعلي للكشف عن المرأة في روايتكَ . أنتَ تبحث عن موضوع ، ولا تسعى وراء حُب . تنقّبُ عن المرأة التي عذّبتكَ ، وتغفل عن حضني الذي ضمّكَ . أنتَ ذَكَري ، لكنكَ مَخْصيٌّ باهت . أنتَ رَجُلي ترمي الاكتشاف ، لكنكَ عاجز . أنتَ المُطفأ حتى ولو أشعلتني. ستبقى بعيداً عن ناري . لن تصلكَ . لن تدفأ. ستكمل طريقكَ بلا أغنية. لن تسمع صوتاً . لن تتصلَ بشيء . لن تَصِلَ إلى شيء ».

. . وهذا أيضاً يخاتلني ، عند كتابتي له. يتبادل أقنعةَ الحقيقة والمَجاز، فلا أُميّز إنْ كان حدثَ حقاً ، أم هو الصدى لصوتٍ قديم يطفرُ مني رغماً عني ؟

يقيني أني سمعته يطرقُ زجاجَ النافذة عند كتفي الأيسر . التفتُّ إليه. كان صَبياً لا يزال ، بشبهة شارب كالزغب ، يؤرجحُ أمام عيني بعنقود جِرار فخّاريّة صغيرة ،مدلاة بشرائط جلديّة رقيقة . أنزلتُ الزجاج ،

أحبها. كنتُ صغيرة . وكان صغيراً . كُنا صغاراً ، ولذلكَ ما كُنا نحسبُ للعواقب حساباتها ، فأغرَيته لأن يدخل معي إلى الكنيسة ذلك النهار .

كان أن عادَ من صيدنايا في الشام . عَمّدوه هناك . وكانوا قصّوا له شعره الطويل كالبنات في دير خِربة الوهادنة . هكذا أوفوا بنذرهم للمسيح والعذراء . أيام زمان . والزمان يركض كمَن يَفرُّ من كلبٍ مسعور يطارده . تَغيَّر قليلاً .

إنهُ صاحبي .

بَرْدٌ . السيلُ يأكلُ ضفتيَه . الناس منكمشون في بيوتهم المغلقة عليهم . وجَرس القُدّاس يرنُّ في قلبي الطمّاع للمعرفة . أنا أعرفُ العالمَ بقلبي . ليس هكذا بالضبط ، لكنني لا أثق إلاّ بي أولاً . خسرتُ . طبعاً خسرتُ ، وخساراتي ليست قليلة . مَن منا لم يخسر كثيراً ؟ لو يحصي الواحدُ منا خسائره ، بالقلم والورقة ، فربما يُهَسْتر .

المهم ، . . . » .

وأوْغَلَتْ مريم في حلمها لتراكَ وترى نفسها هناك . كانت تنسحبُ من حضوركَ ، إثر عدم مراهنتها على أن تكونَ عزاءها ، بعد أن تعبتْ وخدعها الحُبّ . كانت تتشكل وتتلوّن هناك . اتبَعْها ، إنْ استطعتَ ، فربما تجدُ نفسكَ أنتَ أيضاً .

فمَن أنتَ ؟

هل تعرف ، قبل أن تموت ؟

صديقة لها أقامَ معها علاقة جنسيّة هي الأخرى . وقالَ إنه ، فيما بعد ، كان يستمتع بمضاجعة الفتاتين لبعضهما بعضاً في حضوره . أتريد الحقيقة؟ لقد أشفقتُ على الكاهن . ألستَ كذلك ، لو كنتَ مكاني ؟

ماذا ؟ تسألني أن لا أتشتت ، وأن أعود إلى موضوعي ؟

معك حق . لكنكَ تعرف بالتأكيد ؛ فالحديث يجرّ بعضه بعضاً ، وأنتَ ، يا صديقي ، تملكُ سطحاً فسيحاً تحت هذه السماء التي تنير بقمرها المكتمل فصولَ روايتي المُطفأة ».

. . ثم عُدتُ لأحدّثه عن الحرب والموت .

ولمّا عزمتُ ، وجدتهُ يقترب مني ، داعياً لأن نُليّن سيقاننا بالتمشي قليلاً . استجبتُ له ، مخمّناً أنه يُضمرُ أمراً غير التريّض الذي قُمنا به فعلاً . قطعنا مسافة (الروف) ، جيئةً وذهاباً ، أربع مرّات . كان هواء تموز الليلي جافاً خالياً من الرطوبة ، تتخلله برودةٌ منعشة علّها في غير أوانها . تركتُ لتيّار الارتفاع الذي يميّز المكان أن يتلاعب بشعري ، مغتبطاً بالهفهفة الآخذة بقميصي نافخةً فيه نشوةً أشعرتني بالخفّة . كدتُ أطير . في داخلي عَرْبَدَتْ أجنحةٌ واصطفقَت هامّةً بي لأن أَحلّق . من حولي ترامت أضواءُ المدينة على نحوٍ فوجئتُ كَم عمّان باتت كبيرة وممتدة ! هذه مدينتي . أعرفها إلى حدّ يجعلني أخالها لا تَمُتُّ إليّ ! وأجهلها إلى درجة تقنعني بأنها مكشوفة لي ومُباحة . ثمة إضمارٌ مُغْرٍ يستبطنُ هذا الإدراك المفاجئ لمشهد مدينة تتسعُ بتوحُّش . تفقأ بمخارز أنوارها عيونَ الليل وكمائنه . كيف لي أن أجهلَ ما أعرفهُ ، وأعرفَ ما أجهلهُ ؟ لعلَّ ما يتصادى الآن في نفسي يُفسّرُ لي جَهلي ، أحياناً ، بمدينتي التي أعرفها . لعلَّ قول النفّري : «**الإظهارُ حِجاب**» هو الجواب، فأقولُ أنا بالمقابل : «**الحجابُ إظهار**».

إذَن ؛ تلتمعُ الحقائقَ في المحجوب وتنطفئ في الظاهر !

خَلَصْتُ إلى ذلك دون أن أحدّث نجيب رزق الله ، أو عزيز الغالبي (السياق يفرضُ التبادل) . وللحق ؛ لم أُدرك دافعي لكل هذا الاستطراد

حذاءٌ نسائي تكشطت جلدته البُنيّة ، فبانت حشوته الكرتون بلون التراب ـ بكعب غالباً ما كنتُ أراهُ متخلعاً ملطخاً بالوحل . وجرابٌ أسود سميك لا يقاوم تهلهله ، فيتراخى على امتداد الساق بتثنيات سرعان ما تُسْحَب إلى الأعلى ليستقرَّ تحت طوق مطاطي يضغطهُ مُلتفّاً حول الفخذ ـ ثم يعودُ قماشُ الثوب بزهوره الحائلة لينسدلَ ساتراً أنوثةً أصابها الهزال : رُكبةٌ ناتئةٌ لم يخفف من بروزها العظمي الصريح لَحْمُ فخذ متماسك وفير يَصلُها بالأعلى ، أو ربلةُ ساق ملفوفة مشدودة العَضَل . لا وجود لمثل هذا الفخذ والساق . هي امرأةٌ «ممصوصة» ـ بحسب تعبير أهل البيت ، فاستنتجتُ :

«إذَن ؛ هكذا يكونُ للحربِ أن تمتص الناس!» .

قبل الحرب والهجرة ، في يافا ، كانت الحياة حُلوة . كانت حياة . و«بديعة» كانت فتاة شابّة لا تزال ، صارَ وأن ارتبطت بعلاقة مع عمّتي هناك . ربما كانت تعاونها كواحدة من العاملات في مشغل الخياطة البيتي . لم تكن تتقنُ شيئاً ؛ لكنها في المكان «تعمل أي شيء » وكفى ! ولعلّها تشخّص المثَلَ القائل : «رزْقِ الهُبُل على المجانين ! » كان ذلكَ قبل الموجات اليهودية الكبيرة ، وتوسُّع تل أبيب ، ومزاحمة اليهود لعمل عمّتي إلى أن بارت أشغالها . لكنَّ «بديعة » ظلت قريبة . «بديعة بنت مسكينة » ؛ كنتُ أسمعهم يقولون ، بعدما تنتهي من لزوميّة البكاء والندب في حضرة عمّتي : بعد أن تلتهمَ صحون الأطعمة التي تُفرَش لها ، ثم الشاي ، ثم «الجزدان » بما يُخْرَج منه ، وأخيراً :

«لماذا يا عمّتي لا تعطيني كَرت المؤن ؟» ، تقول بديعة .

«أعطيكِ المؤن . أما الكرت ، فربما أحتاجه لأمرٍ أهم» ، ترد عمّتي .

في يافا ، مثلما سمعتُ من عمتي وخضر شاويش ، كانت الحياة حلوة .

«كيف ؟» ، كنتُ أسأل .

«الأشياء متوفرة ورخيصة ، والناس بسطاء طيبون !» ، يُجمعان .

كان السوار الذهبي ، أو الفضي ، موضة الرجال المقتدرين . وكلّما غَلُظَتْ زَرَداتُ السوار بانَ اقتدارُ المتزيّن به . تماماً مثلما هو طقم أزرار أردان القميص المذهب . وهذا ، أيضاً ، كنتُ أرفضه ، لأنَّ ارتداء البذلة شكّلَ لي مسألةً سخيفة بذاتها . يسمونها «كَفلينكس » . لكنني أذعنتُ في النهاية وقبلتُ بهذا الكفلينكس بديل أزرار ردني قميصي الأبيض ، ماركة C.J.C، بعدما رأيتُ أن لا ضرر في ارتدائي للبذلة وربطة العنق ، إرضاءً لرغبة أبي . غير أنَّ رغبةً لي ظلّت تلحّ عليّ . أريد قداحة «رونسون » . خجلتُ من مفاتحة أبي بذلك ، رغم حدسي بأنه لن «يقطع رأسي » ؛ فهو ليس من صنف الآباء القساة في تعاملهم مع أبنائهم . وربما (إني أتذكر الآن إشاحته والتزامه الصمت) لأنه تجاهلَ معرفته بأنني شرعتُ بالتدخين ، بادئاً بسجائر **فيلادلفيا** ـ الأغلى كونها السجائر الأردنيّة الأرقى .

تلك الأيام ،

جَرّبتُ صنفاً آخر جديداً ـ لا ؛ جربّتُ الصنفين الجديدين اللذين طرحتهما شركة التبغ المنشأة في الضفة الغربيّة . راوحتُ بينهما وسجائر فيلادلفيا المصنوعة في عمّان . لم أكن ، يومها ، بقادر على التمييز بين الطعوم والنكهات . ويخطرُ لي الآن ، خلال سردي لصُور تلك الأيام، أنَّ تفضيلي لهذه السيجارة على تلك إنما يرجع لانجذابي نحو تصميم العلبة وألوانها . أما الطعوم والنكهات ؛

هل كان ثمة فَرْق ؟

أنا أسأل ، الآن .

* * *

تلك الأيام ؛ هل كان ثمة فَرْق تقدر أن تُقيمه بين الطعوم والنكهات؟

تلك الأيام ،

كَم كان عُمركَ ، وقتذاك ؟

أنتَ لا تعرف على وجه التحديد ، لأنكَ ، مثلما تدركُ حائراً في

17

حكيتُ لمريم فيما بعد ، بعد أن أصبحت ماسة ، عن قصة أخرى للطوفان ، لم يَرِد ذكرٌ لها في أي كتاب . لم يَقصّوا علينا تفاصيلها في مدرسة الأحد ، حَيث كانوا يوزعون صوراً ملوّنة ليسوع ولأمه مريم العذراء . أظنني سألتها ، وكان شتاءُ عمّان لا ينقطع مطره ، بينما تحدّق عيناي بمعطفها الأحمر (أكنتُ أحسدها على دفء قماشة الجوخ ؟ هذا غريب! إنْ صَحَّ ظَني فالأمرُ غريب فعلاً ؛ إذ كنتُ أعيش في بيت من قماش . فأبي لا يزال يخيطُ لنا بعضاً من ثيابنا رغم اعتزاله مهنة الخيّاطة للسيدات . وكذلك أمي . لكنهما كانا يحتفظان بماكينة «سنجر» ذات الدولاب الذي يعمل بضغطة القدم ، والقشاط الجلدي اللاقط للغبار بسبب حرص أبي على تزييته ليكون دائم الجهوزيّة . ناهيك عن أثواب الأقمشة من كل نوع ولون ، والصناديق مختلفة الأحجام المليئة بشتى صنوف الأزرار . أزرار كبيرة للمعاطف ، أزرار متوسطة للتنانير ، وأزرار صغيرة للقمصان وأردانها . وفي أحد أدراج الماكينة ، ثمة علبة توفي ماركة «ماكنتوش» حُفرَتْ حروف الاسم فبانَ نافراً على ظَهر غطائها الملوّن والمرسوم بإتقان ، فيما برزَ معكوساً غائراً في صفيح سطحها الآخر اللامع . كنتُ أفتحها لألتقطَ منها «موازير» الخيوط الساحرة لاختلاطها ببعضها بعضاً ، فيختلطُ بذلك الأحمر بالأسود بالأصفر بالأبيض بالأزرق بالبُني . كانت علبة «الماكنتوش» هذه أشبه

المتحشدين عن ضرب العراق . لم يكن يومها لتلك الحرب اسمٌ . يومَ وقعّتم على العريضة الشاجبة لنُذرها التي تحوم في سماء المنطقة ، لم يكن للحرب اسمٌ . لم تكن «عاصَفة الصحراء» قد هَبّت بعد . غير أن الجميع استطاعوا التقاط ذرّاتها وهي تزدحم في الفضاء فوق الرؤوس . وهي تنضجُ على مهل في التقارير الصحفيّة والحوارات العصبيّة حولها . في حُمّى تضارُب التحليلات عن حتميّة وقوعها ، أو رَجَحان التوصل إلى حَل في اللحظة الأخيرة . لكنها ، خلال ذلك ، كانت تعيش وتتحرك مع ساعات أيامكم . تنمو وتتفتح كعُشب المقابر على وسائدكم، دون غفلةٍ منكم . أنتم تنامون ، وهي تكبر .

كُنتُم تقتاتون خوفاً تدركون هويته . لكنه ، رغم ذلك ، كان غامضاً .

أبسبب هذا الخوف العاري والغامض ، في آن ، لجأتَ إلى التحرّش بها ؟ كأنكَ ، في أوقات كهذه ، حيث ينغلُ التهديدُ آكلاً روحكَ قضمات واثقة ، يصيرُ لغريزة البقاء أن تستنهضَ ذاتها عبر فعل النكاح ! فعل المعاشرة المباشر الذي لا يحتاج إلاّ أقلّ القليل من التمهيد المخاتل ، المتحايل على صراحة الرغبة المقروءة دون عَناء في رعشة الصوت . غير أنَّ ثمة رائحة تتكثف لتحضرَ في دقائق التحرش المفضوح ومناورات التعارُف الهادف . وثمة ، أيضاً ، التوافق في ما اكتشفتَ ، لاحقاً ، بينكما . ليست هي العيون وحسب : تواطؤٌ صامت حيال سقوط النظرات الصريحة على مواقع الجنس القابعة تحت الثياب . وليست هي الأصابع وحسب : تلامُسٌ يُرادُ صبغه بالعفويّة ، لكنه سرعان ما يتحوّل إلى الإمساك بالأيدي . ثم تسيران متجاورين ، كأي رفيقين قديمين ، منفكّين عن تراصّ الاعتصام ، الذي ما لبثَ أن انفرطَ عقده .

إنه مجالٌ حيوي جذبكما إلى مداره ، فدخلتما فيه ، ومضيتما تحثّان خطاكما حتى منتهاه .

لكل أمرٍ منتهى . وكانت هي تسمّي نفسها ، عند تبادلكما للأسماء ، منتهى .

المعلّقة على الجدار ، فوق طاولة من خشب الفورمايكا عَسَلي التمشيحات ، قابلة للطي ، بلا أدراج ، بدفترين على سطحها ، وثلاثة أقلام حبر جاف ماركة «بك» تنهض برؤوسها الزرقاء والحمراء والسوداء من فوهة «مَغ» قصير مطبوع على استدارته سماوية اللون ، بطريقة «السلك سكرين» ، شعار شركة الشحن والتخليص بالكُحلي الغامق .

أبقيتَ على ذلك كلّه ، دون أن تتساءل عن سر اهتمامها الخالص بما قرأتَ وبما سوف تقرأ ، مرجّحاً احتمال المجاملة والتهذيب . لكنكَ ، ويا للعجب ، لم تتساءل عمّا دفعكَ أنتَ لهذه القراءة المتحمسة ! أنتَ الذي يرفض ، غالباً ، أن يَطّلع أي أحد على ما تكتبه قبل أن يُنشَر .

غير أنها ، وقبل أن تبدأ بتلاوة الشطر الآخر مما كتبته أثناء انشغالها بالاستحمام ، تاركةً لكَ الأولويّة في ذلك ، وبعد أن كانت هيأتْ عشاءً خفيفاً من حواضر البيت : أربع «بيضات عيون» مقليّة بزبدة «لورباك» . صحن زيتون أخضر وفي وسطه ، بين الحَبّات المكتنزة محزوزٌ لحمُ دسامتها الخفيفة ، ثمة قَرنٌ نصف مشطور من الفلفل الحار المكبوس والمخلل . صحنان صغيران مجوّفان من الفخّار المدهون والمزَجَّج تكوَّمَ الزعترُ في أحدهما وقد فاحت منه رائحةُ السُمّاق الظاهر بأحمره الداكن المخلوط مع السمسم المُحَمَّص ، بينما التمعَ ، في الآخر، زيتُ الزيتون الضارب إلى الاصفرار الذهبي . وصحنٌ عامرٌ بمربّى محيّر اللون ؛ إذ يتخايلُ بين البرتقالي والمشمشي والأرجوانيَ المُشَرَّب بعروق بُنيّة كأنها خيوط ليفيّة تتخلل القوام المستريح بثقله مالئاً الصحنَ المستطيل المحفوف بزنّار من الدهان المُذهَّب وآخر تحته بزرقة الـ «نيڤي» المميزة .

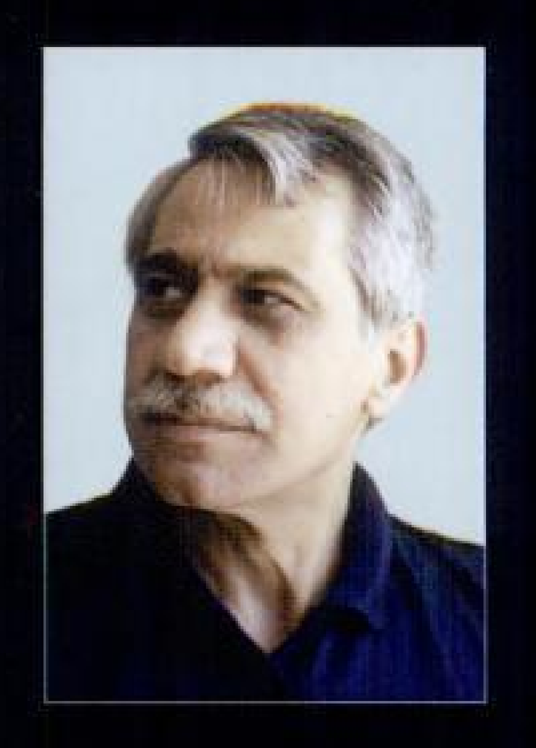
. . غير أنها ، وقبل أن تبدأ بتلاوة الشطر الآخر مما كتبتهُ ، وبعد أن استجبتَ لإلحاحها بشرب كوب الشاي المُخَمّر المندلق هّيناً وواثقاً من فم الإبريق خمرياً صافياً بلا أي عَكَر : «اشربهُ الآن ، قبل أن يثقُل فلا ينفع السُكّر في إصلاح طعمه» ، أدركتَ أنَّ ثمة جانباً آخر في هذه المرأة بدأ يحضر . شكرتها. رفعتَ الكوبَ إلى فمكَ ، فلفحكَ بخارُهُ الدافئ ،

THE LAND OF LIMBO



القائمة القصيرة لجائزة بوكر العربية عام 2008

أرض اليمبوس



تعليق لجنة تحكيم جائزة بوكر :

وحّد إلياس فركوح ، في هذه الرواية ، بنية السيرة الذاتيّة لإنسان محدّد الهويّة والانتماء وسيرة الإنسان المغترب بشكل عامّ ، متحدّثًا عن « سطوة الزمن » وهشاشة الإنسان وقوّته ، بلغة مشرقة نضرة، مدرجًا في العمل مجموعة من الأصوات المتنوّعة.

يصل إلياس فركوح ، في « أرض اليمبوس » إلى عمله الروائيّ الأكثر إتقانًا ، بل يصل إلى عملٍ يجد لذاته مكانًا مريحًا بين أفضل الروايات العربيّة ، الّتي ظهرت هذا العام (2007) ، منتهيًا إلى نصّ نوعيّ يضيء معنى الكتابة الروائيّة ، ويتّكئ هذا الحكم النقديّ على الموضوع الّذي عالجه الروائيّ ، لكنّه يتّكئ أكثر على العناصر التقنيّة الّتي أنتجت الخطاب .

د. فيصل درّاج / الدستور الأردنيّة

اللافت ، في « اليمبوس » ، أنها تبدأ بالمرأة والحرب وتنتهي بالمرأة والحرب ، وتظلّ هاتان المفردتان متلازمتين على امتداد النصّ ، ما يعني تساؤلًا ملحًا في جوهر الخطاب الروائيّ . واللافت أيضًا أنّ هذا التلازم يأخذ بعدًا جنسيًا في أغلب الأحوال ، فهل ثمّة علاقة بين الجنس والحرب ؟

يوسف ضمرة / الحياة اللندنيّة

هنا يستقدم السرد « ثقافة الاعتراف » بتوظيف خاصّ (محدّد) حينما تتوسّل الكتابة بذاكرة الجسد تحديدًا : (في أوّل اعتراف أدليت به لغير الكاهن ، كان ذلك في حضن امرأة) ـ وبهذا تلتقي الحرب والمرأة ، الموت والرغبة في سياق واحد مشترك

مصطفى الكيلاني / القدس العربيّ



ISBN 978-9957-09-276-6



